

تراث العرب

ديوان الحطريّة

بشرح

ابن السكيت والسكري والسجستاني

تحقيق

فهمان ابن طه

ماجستير في الأدب العربي - جامعة القاهرة

مركز مكتبة وطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

ديوان الحطريته

الطبعة الأولى

١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م

الإهداء

إلى روح جدى « طه جبر » ذلك الذى
أصبغ على من نوره ما جعلنى أستضيء
به فى غابرى ، وفيما أستقبله من أيام .

نعمانه

مقدمة

« فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً
وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ
فَيَبْقَىٰ فِي الْأَرْضِ »
صدق الله العظيم

إن تراثنا العربي الذي ورثناه عن أجدادنا ، ما زال أكثره مخطوطا ، حبيسا في دور الكتب المختلفة في البلاد العربية والأوربية والتركية . وحينما اطلعت على فهرس مخطوطات الجامعة العربية « بمعهد إحياء المخطوطات العربية » هالني ما تمتلئ به دور الكتب في تركيا من مخطوطات نفيسة قيِّمة ما زالت طي الكتمان ، وما زالت في حاجة إلى نفوس واعية غيورة ، وأيد أمينة متحفزة لكي تخرجها إلى عالم النور والمعرفة .

وقد أخبرني أحد الأساتذة الذين زاروا تلك المكتبات ، أن بتركيا من المكتبات والكتب ما يزيد أضعافا مضاعفة على ما تحتويه دار الكتب المصرية من كنوز ، ففكرت كل ذلك إلى الإسهام في إخراج التراث العربي إلى النور ، وبدأت بتحقيق بعض دواوين الشعر العربي ما نشر منه وما لم ينشر ، في سلسلة تحمل هذا العنوان .

دواوين العرب

وقد استطعت الحصول على أربع مخطوطات لديوان جرير من مكةات: وأرسلت لها
هذا غير ما هو موجود في مصر - وسأبدأ في طبعه - بعد أن انتهيت من ديوان الحطيئة -
إن شاء الله .

وَأَسْأَلُ اللَّهَ الْمَدِيَّةَ وَالْتَوْفِيقَ فِيمَا اعْتَزَمْتُ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ نَعَمُ الْمَوْلَى وَنَعَمُ النَّصِيرُ .
ديوان الخطيئة وطبعاته السابقة :

يقول جولد تسيهر I. Goldyihir في دائرة المعارف الإسلامية :

« نشط اللغويون في القرنين الثاني والثالث الهجري إلى جمع أشعاره ، وكان قد أفسدها الحشو والوضع منذ أمد طويل ، وخاصة على يد حماد الراوية ، ويستدل على هذا بقصته مع بلال بن أبي بردة ، حينما ادعى أن الخطيئة قد مدح جده أبا موسى الأشعري بالقصيدة الرائية (رقم ٥٠ ص ٢٢٥) وقد خلط شعره بشعر غيره ، ومما يدل على ذلك أن هناك قصيدة دالية لسويد بن كراع في « بغيض » ممدوح الخطيئة تنسب إلى الخطيئة لكثرة مدحه بغيضا (غ ١١ / ١٢٣) وهناك عدة مقطوعات تنسب للخطيئة ، وخصوصا في الهجاء والحكمة ، لا توجد في دواوينه المخطوطة التي بين أيدينا ، كذلك فأعتقد أن له كثيرا من الشعر قد ضاع ، كما ضاع شعر غيره من الفحول ، لأنني لا أرى من شعر الهجاء إلا مقطوعات قليلة بالنسبة لما اشتهر عنه من كثرة الهجاء » .

وقد وصلنا شعر الخطيئة من ثلاثة طرق :

الأول : طريق أبي سعيد السكري وبين أيدينا أربع نسخ مخطوطة من ديوان الخطيئة إحداها بليدن صنعة أبي سعيد هذا ، واثنان بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٤ أدب ، ٥٨٥ أدب ، ورابعة بمكتبة الفاتح بتركيا تحت رقم ٣٨٢١ . أما مخطوطة ليدن فلم أرها إلا فيما نقل جولد تسيهر عنها في طبعته للديوان ، ووجدت أن ما بها من روايات لا يبدو أن يكون إشارة إلى ما بالنسخة من تصحيف وتحريف ، ومثلها في التحريف نسخة دار الكتب رقم ٥٨٥ أدب . أما النسخة الأولى ٥٥٤ أدب فهي أكثر دقة وأقدم عمرا ، وقد رمزت لها في طبعتي بالرمز (و) . أما نسخة مكتبة الفاتح فهي في ٨٧ ورقة وأدق من المخطوطات السابقة من ناحية وضوح الخط وجماله ومن ناحية ضبط الكلمات ، وكذلك من ناحية قدمها إذ قد كتبت في القرن السابع الهجري ، وعلى الورقة الثانية منها هذه العبارة بالهامش « وقف

السلطان ابن السلطان الغازي محمد خان . . حرره الفقير درويش مصطفى . « وفوق هذه العبارة خاتم كتب فيه : « الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . » وفي أسفل العبارة خاتم كاتبه . وقد ألحقت بهذه الطبعة صورة الورقة الثانية منها ، وفي أولها - كما هو موجود في مخطوطاتي دار الكتب - الحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد نبيه وعترته المنتخبين . قال أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري^(١) : أخبرنا محمد بن حبيب ، عن ابن الأعرابي^(٢) وأبي عمرو^(٣) قال : قال الخطيئة : «

وهذه المخطوطات الأربع تتفق بعضها مع بعض في عدد القصائد والمقطوعات الموجودة بها وفي ترتيب هذه القصائد .

أما الطريق الثاني : فهو طريق أبي حاتم السجستاني ، وقد وردت بعض قصائد الخطيئة التي جمعها أبو حاتم في مختارات ابن الشجري - في القسم الثالث منها - وهي أقل عددا مما رواه السكري : قال جولد نسيهر : وكان أبو حاتم أدق من الشيباني وابن الأعرابي ،

(١) انظر ترجمته في نهاية المقامة .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي : من أئمة الكوفيين في اللغة ، كان «الما ثقة » أخذ عن المفضل الضبي والسكاسي . وأخذ عنه جماعة أشهرهم أبو العباس ثعلب . وكان ابن الأعرابي أحفظ الناس للغات العرب وأيامهم وأنسابهم . له تصانيف كثيرة أشهرها . كتاب النوادر . ولد في سنة ١٥٠ هـ وتوفي سنة ٢٣٠ هـ وقيل ٢٣١ أو ٢٣٢ أو سنة ٢٣٣ .

(٣) قال في الوفيات ٦٥/١ أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني النحوي ، اللغوي هو ابن رمادة السكوفي ، ونزل بغداد ، وهو من الموالي ، وجاور شيبان للتأديب فيها ، فنسب إليها . وكان من الأئمة الإعلام في فنونه وهي اللغة والشعر ، وكان كثير الحديث كثير الدماع ثقة ، وهو عند الخاصة من أهل العلم والرواية مشهور ، والذي قصر به عند العامة من أهل العلم أنه كان مشتهرا (أو مستهترا) بشرب النبيذ . وأخذ عنه جماعة كبار منهم أحد ابن حنبل ويعقوب بن السكيت . وقال في حقه : عاش مائة وثمانى عشرة سنة ، وكان يكتب بيده إلى أن مات وكان ربما استعار الكتاب مني وأنا إذذاك صبي آخذته وأكتب من كتبه . ومات في اليوم الذي مات فيه أبو النباهية وإبراهيم التميمي الموصلي سنة ٢١٣ ببغداد . وقيل بل سنة ٢٠٦ وعمر مائة وعشر سنين وهو الأصح .

وقال في معجم الأدباء لياقوت ٧٨/٦ مات في أيام المأمون سنة ٢٠٥ أو سنة ٢٠٦ وكان يقول : تعلموا العلم فإنه يوطي الفقراء بسط الملوك . وكان الغالب عليه للنوادر وحفظ الغريب وأرا جيز العرب ، وجمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، وكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها للناس كتب مصحفا وجعله بمسجد السكوفة (انظر فهرس . لرواة من هذه الطبعة ص ٤١٥ أمام اسم أبي عمرو الشيباني أو أبي عمرو) .

فحرص فيها على رفض الأشعار المشكوك في نسبتها إليه^(١) :

أما الطريق الثالث الذى لم ينتبه إليه جولد تسيهر في طبعته أو تعليقه في دائرة المعارف . فهو طريق أبى يوسف يعقوب بن السكيت .

وأغلب الظن أن مخطوطته التى رويت عنه قد ضاعت ، ولكنها ضمنت ما جاء في مخطوطة مكتبة عاطف أفندى التى كتبت في القرن السادس الهجرى - كما حاول أن يحدد تاريخها جامعو فهرس معهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية - وهى في ٤٦ ورقة ، ومثبتة في فهرس مكتبة عاطف أفندى تحت رقم ٢٧٧٧ ، وفي فهرس الجامعة العربية السالف الذكر تحت رقم ٥٠٦ . وقد أشرنا إليها في طبعتنا بالرمز (ع) وتعتبر وحيدة لا نظير لها في مكتبات العالم ، ولم ينتبه إليها أو يعرفها أحد قبل على ما أعلم .

طبقات ديوان الخطيئة السابقة :

١ - طبع الديوان لأول مرة في القسطنطينية سنة ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠ م) في جزئين - كما يقول الأستاذ إفرام البستاني صاحب الروائع الذى اطلع على أولهما فقط^(٢) . وحاولت جاهدا العثور على هذه الطبعة لمجرد الاطلاع عليها دون جدوى : إذ لجأت إلى دار الكتب المصرية ومكتبة الأزهر ثم مكتبة دار العلوم آملا في أن يكون أحدهم قد عنى بإيداع نسخة من هذه الطبعة في مكتبته العامة ، وإذا بي أخرج منها وأنا أردد هذا المثل : تسمع بالمعدي خير من أن تراه . وعجبت أشد العجب كيف فات القائمين على أمر اللغة العربية وسدنة لغة الضاد - وهم أربع الناطقين بها وبالصاد والطاء والظاء - كيف فاتهم الاحتفاظ بنسخة واحدة مع أن مدرستهم قد أنشئت قريبا من العهد الذى نشر فيه الكتاب وطبع ، وقلت في نفسي أخيرا - تعليلا لهذه الظاهرة : لعلهم لم يعنوا بدراسة الأدب الجاهلى في هذه الفترة ، أو كانوا يابون قراءة الكتب العربية التى يطبعها الأعاجم ومن بينهم هؤلاء الأتراك ! أو أن وطنيتهم وعروبتهم قد أبت عليهم - أن يسمحوا لمطبوعات الأتراك العربية

(١) انظر الصفحات ٢٦ ، ١٠٨ ، ١٧٠ من هذه الطبعة .

(٢) وقال الأستاذ البستاني عنه : عليه إيضاحات مختصرة مأخوذة من شرح السكرى .

أن تتسرب إلى دار العلوم فتلونها لقول حافظ إبراهيم قصيدته في هذه الآونة ومنها :

صرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى لعب الأفاعى في مسيل فرات

أو أنهم ابتعدوا عن قراءة شعر الخطيئة لأنه كان من المرتدين الذين حاربهم أبو بكر الصديق . . أو لأنه ولد زنا كما يروى التاريخ . أو لأن أبا العلاء المعرى قد وضعه في رسالته في موضع مهبين « ... بيت في أقصى الجنة كأنه حفش أمة راعية ، وفيه رجل ليس عليه نور سكان الجنة وعنده شجرة قمينة ثمرها ليس بذاك .. » أو أنهم قد شغلوا عنه بتلك الوظيفة الرائعة التي ما زال الواحد منهم يدعو الله تضرعاً وخفية صباح مساء حتى ينالها ، فتأخذ عليه لبه وعقله وجسمه ، وتفرقه إلى أذنيه في حساب الأخطاء الإملائية والهمزات والنقط وعلامات الترقيم وغير ذلك مما يفوق في أهميته أبحاث العلماء في التربية وعلم النفس وفي الطاقة الذرية وزيادة سرعة الطائرة ومحارة الوصول إلى القمر ...

الحق أقول - إننى رغم تفكيري الطويل - لم أهتم - إلى الآن - إلى تحليل مثل تلك الظاهرة أو غيرها مما يتصل بهم ، ولعل أحد مبعوثي اليونسكو في هيئة الأمم المتحدة يستطيع في يوم من الأيام أن يهتدى إلى كثير مما عجزت عن الاهتداء إليه من أمر هؤلاء القوم الذين يمزج علمهم الجرم وتواضعهم الشديد بكبرياء تشبه هذا المخلوق الذى أبى أن يسجد لآدم !

وقد زال عجبى منهم حينما زرت مكتبتهم فوجدتها خالية من كثير من المراجع الهامة القديمة ، فعرفت حينئذ السبب في إطلاق هذا الاسم اللطيف « دار العلوم » على معهدهم !

لقد قطع الدراعة - بالدال أو الضاد - حبل تفكيري والاستمرار في سرد طبقات ديوان الخطيئة ، فلنعد إليها ، راجين ألا تفجأنا صورة الدراعة فتقطع علينا الحديث مرة أخرى :

٢ - أما الطبعة الثانية فقد عنى بها المستشرق جولد تسيهر ، وقد رجع إلى مخطوطى دار الكتب المصرية وإلى مختارات ابن الشجرى ، ولم يحاول أن يرجع إلى مخطوطة مكتبة الفاتح أو عاطف أفندى ، برغم أنه علم بوجود هاتين المخطوطتين : إما ظلنا منه أنهما نسختان

مطابقتان لما بيده ، فلا داعى للرجوع إليهما وإما لصعوبة الوسائل التى يستطيع بها الحصول على هاتين المخطوطتين ، وقد نشر النص ، بعد التقديم له بمقدمة ضافية تبلغ الستين صفحة باللغة الألمانية - ثم علق على النص ، وكان يذكر تعليقه بعد كل قصيدة فيشير إلى روايات البيت المختلفة ثم يعنى بذلك آيات أخرى للحطيفة أو لشعراء آخرين فى معنى البيت أو شبيهة بمبناه . وفى نهاية طبعته ذكر بعض القصائد التى لم تذكر فى المخطوطة ومنها قصيدة الحطيفة المشهورة التى مطلعها « وطاوى ثلاث . . » وقد أفدت من تعليقات جولد تسيهر : فحاولت أن أذكر أغلبها فى هذه الطبعة ليستفيد منها القارى ، ولم أحذف منها إلا ما وجدته بعيدا عن الصواب فى فهمه كلمة من الكلمات كما حدث فى فهمه لكلمة « السر »^(١) وعلى كل ، فإن الآيات التى استشهد بها جولد تسيهر لم أحذف منها إلا القليل !

٣ - أما الطبعة الثالثة : فقد طبعها أحد السادة الناشرين من أصحاب المكتبات المتخصصة فى طبع الكتب ذات الورق الأصفر سنة ١٩٠٥ (سنة ١٣٢٣ هـ) وقد أخرجها هذا الناشر أسوأ إخراج ، وقد حاز قصب السبق فى كثرة الأخطاء والتعريف الذى تعجب به كل صفحة من صفحات الكتاب .

والغريب أنه أضاف إليه اسم عالم من العلماء هو أحمد بن الأمين الشنقيطى ، وأغلب الظن أن هذا العالم لم يعن بتصحيح هذه الطبعة .

٤ - الطبعة الرابعة : وقد ظهرت حديثا فى لبنان معتمدة على الطبعتين السابقتين . وقد أضاف إليها الشارح شرحا خفيفا لبعض الكلمات ، وكل الذى أتى به من تجديد أنه أخرج الديوان فى صورة جديدة من ناحية تنظيم القصائد أو رسم الآيات بما يشبه إخراج داوين الشعراء الشبان المحدثين .

(١) فقد فهمها جولد تسيهر بمعنى « حفظ السر » والحق أن معناها النكاح سواء أكان مجرد الفشيان أو الزنا كما ذكرت فى هذه الطبعة ص ٦٣ ، فلما ظن جولد تسيهر المعنى الذى ظنه ، حاول - على طريقته لإيراد تعليقه فى ذلك وهو « والحفاظة عليه بما يمدح به الرجل ويفخر به وهو معنى شائع فى أدب العرب القديم ... الخ »

﴿ أما هذه الطبعة الحديثة من الديوان ﴾

قد اعتمدت فيها :

أولا : على طبعة جولد تسير التي رجع فيها إلى مخطوطتي القاهرة برواية السكري ، وما ذكر للحطيثة من قصائد في مختارات ابن الشجري ، وقد رمزت للمخطوطتين الأوليين المتفتحتين في عدد القصائد وترتيبها اتفاقا تاما بالرمز (م) ولختارات ابن الشجري بالرمز (م)

ثانيا : على مخطوطة مكتبة عاطف أفندي ، ورمزت لها بالرمز (ع) وعليها كان مَعَوَّلِي أولا ثم على بقية المخطوطات .

وصف مخطوطة ع

هي ضمن مخطوطة صورتها الجامعة العربية من مكتبة عاطف أفندي ، ويوجد قبلها وبعدها - في هذه المجموعة التي تحتوى عليها المخطوطة - كتاب أو أكثر . أما الجزء المحتوى على شعر الحطيثة منها فيقع في ٤٦ ورقة ، كل ورقة تشتمل على صفتين متقابلتين ، ماعدا الورقة الأولى والأخيرة فقد كان في الصفحة اليسرى من الورقة الأولى مقدمة عن الحطيثة تملأ النصف الأعلى من هذه الصفحة - أما الصفحة اليمنى من هذه الورقة فكانت نهاية كتاب آخر من الكتب التي تشتمل عليها المخطوطة . وفي أعلى المقدمة السابقة عنوان بخط النسخ :

شعر الحطيثة

ثم تبدأ المقدمة هكذا :

« قال : كان الحطيثة رجلا عملاقا ، ولم يكن يقنئ المال ، ولا يحسن إمساكه . . الخ في ١١ سطرا متوسط كلمات كل سطر ٢٠ كلمة . ثم لا يبدأ الكاتب - بعد هذه المقدمة - في الجزء الباقي من الصفحة في إيراد القصيدة الأولى من شعر الحطيثة ، بل يترك فراغا . ثم يبدأ من

الورقة التالية في ذكر القصيدة الأولى ، بعد ذكر البسمة ثم نسب الخطيئة (وقد عرضت على القارى صورة زكوغرافية لهذه الورقة) . وأنا أشك في أن المقدمة الأولى التي كتبت على الورقة الأولى لهذا العالم الذى جمع هذا الديوان ، بل أغلب الظن أن الورقة الأولى من المخطوطة القديمة فقدت ، فنقل السكائب المتأخر هذه المقدمة من المخطوطة المعروفة للتداوله برواية السكرى ، والدليل على ذلك شيثان :

أولهما أنه ترك النصف الأسفل من الصفحة خاليا من الكتابة ، ولم يذكر فيه سنداً للرواة أو تاريخ الكتابة أو النسخ كخطوطة السكرى المشهورة المعروفة ، مع أنها نسخة قيمة من الناحية العلمية (كما سأبين بعد) .

ثانيا : اختلاف الخط في هذه الورقة عن الخط الذى كتبت به الأوراق التالية في المخطوطة .

أما من ناحية نسبة هذه المخطوطة إلى أحد العلماء الذين جمعوا شعر الخطيئة ، فسنحاول نسبتها إلى أحد هؤلاء العلماء ، بعد إيراد هذه الملاحظات .

أولا : نلاحظ أن المؤلف أو الكاتب في القسم الأول من المخطوطة (وهو الذى يبدأ من الورقة الثانية حتى الورقة التاسعة والثلاثين) : يذكر البيت ثم يشرح الألفاظ مع الاستشهاد على ما يقول بآية قرآنية أو بيت من الشعر ينسبه كثيرا إلى قائله وفى بعض الأحيان يترك نسبته إلى قائله . وهو أحيانا يذكر البيت الذى يستشهد به كاملا ، وفى أحيان أخرى يكتفى بذكر جملة من البيت هى موضع الاستشهاد . ونلاحظ أنه فى بعض الأبيات يحاول أن يذكر آراء أخرى لعلماء آخرين (لا يذكر أسماءهم غالبا) حول بيت من الأبيات بعد ذكر كلمة : غيره .

وقد يكرر هذه اللفظة بعد البيت الواحد مرتين أو ثلاثا^(١) . وقد يذكر شرحا آخر للفظه واحدة أو للبيت أو رواية أخرى فى هامش الورقة ، وهذا قليل^(٢) . ونلاحظ على هذا

(١) انظر البيت ٢٤ من ص ١٥ :

(٢) انظر التعليق على البيت ٢ ، ٣ من ص ٣٣ .

الجزء من المخطوطة استفادة في الشرح تربو كثيرا على نظيرها مما جاء في القسم التالى من المخطوطة أو مما جاء في نظيره مرويا عن السكرى ، وهو يهتم في هذا القسم بالرواية وتمدها والشرح اللغوى اهتماما كبيرا والاستطراد أحيانا في ذكر مترادفات قد تصل أحيانا إلى عدة أسطر^(١) . أما من ناحية الخط : فيكتب البيت بخط أكبر بمقدار الضعف من خط الشرح (انظر الصور الزنكوغرافية) وهو يعنى بالشكل عناية كبيرة مما يزيد من قيمة هذه المخطوطة ، ويبلغ من حرص الكاتب على الدقة أنه إذا ظن عدم وضوح لفظة وضوحا كافيا فإنه ينص على كتابتها بخط أوضح في الهامش . ومن ناحية العلامات الظاهرة ، فإن كل ورقة من المخطوطة لا تخلو من علامة هى بصمة كاتب هذه المخطوطة غالبا أو قارى لها فيما بعد ، وتوجد هذه البصمة دائما في الجزء الأيسر من الورقة وفي الزاوية اليمنى السفلى من الورقة أيضا .

أما الخط : فهو واضح في جملة إلى حد ما ، ويعيبه أحيانا سقوط بقعة من المداد أو فشاء للداد بحيث يجعل من المتعذر أو من المستحيل قراءة لفظة أو لفظتين ، وبذلك يصعب فهم جملة برمتها ، والمواقع التى توجد بها هذه البقع قد أشرت إلى أغلبها في الهامش ، أو اكتفيت - فى القليل - بوضع نقط تدل على ذلك ، وقد اهتمت في بعض المواضع - بعد طول عناء وتدقيق - إلى قراءتها^(٢) .

أما من ناحية الشرح فهو مسهب جدا في بعض القصائد (مثل القصائد رقم ٣٦ ، ٤١ ،

(١) انظر الصفحات ١٣٠ ، ١٣٤ ، ٢١٧ ثم الفهرس الخاص بالفوائد رقم ١٧ من للفهارس .
(٢) أما البقع فكانت في الأوراق والمواضع الآتية : فى : ورقة ٦ ، ٧ (أعلى الصفحة اليمنى .)
فى الورقة ١٧ (وبها ٥ بقع فى الصفحة اليمنى وفى الورقة ١٩ (بقتان) وفى الورقة ٢٠ (بقعة واحدة فى الصفحة اليمنى) وفى الورقة ٢١ (بقتان فى أسفل الصفحة اليمنى وواحدة فى أعلى الصفحة اليسرى) وفى الورقة ٢٧ (بقعة فى أعلى الصفحة اليمنى) . وفى الورقة ٣١ (بقعة كبيرة فى وسط الصفحة اليمنى) . وفى الورقة ٣٣ (ثلاث بقع مخروطية الشكل على اليمين من الصفحة اليمنى وآخران صغيرتان فوقهما على اليسار من الصفحة نفسها وفى الورقتين ٣٥ ، ٣٦ (ثلاث بقع مخروطية على اليمين من الصفحة اليمنى ثم أربع فى الهامش من الصفحة نفسها ليست بذات أثر سئ) وفى الورقة ٣٧ (بقعة مخروطية أواسط الصفحة اليمنى اختزلت أربعة أسطر) وهناك عيوب أخرى لضيق الحبر (للشلطة الطولية التى تمتد حتى تشمل عدة أسطر كما فى الصفحة اليمنى من الورقة ٣٨) .

١٠١، ٧١، ٣٩، ٧٧، ٥٠، ٥٧، ٢٥، ٧، ٢٢، ١٠١ وهو متوسط في بعضها الآخر (كما جاء في القوائد رقم ٤٠، ٣٨، ٨٩ وعلى الجلة فإن الشرح في قصائد المدح أسهب منه في الهجاء ، وفي أول المخطوطة أسهب منه في أواخرها .

أما من ناحية نسبة هذا الجزء أو القسم من المخطوطة إلى ابن السكيت فيشير إليه ذلك العنوان الذي بديء به القسم التالي له مباشرة :

« عن غير يعقوب » وخاتمة هذا القسم الثاني أيضا بهذه العبارة : « آخر ما وجد من غير رواية يعقوب » (انظر الصورتين الفوتوغرافيتين لورقتي ٣٩ ، ٤٦) وبذلك يثبت أن هذا القسم لابن السكيت برغم وجود هاتين العبارتين اللتين أثارتا الشك في نفسى وهما :

« وروى يعقوب » في السطر الخامس من ص ١١٨

« ومثله أنشد يعقوب » في ص ٢٦٨

وأغلب الظن أن كلمة « غير » قد سقطت من العبارتين قبل الاسم « يعقوب » فتكون صحة العبارتين السالفتين : « وروى غير يعقوب » « ومثله أنشد غير يعقوب » ، وبذلك يستقيم الرأي الذي يقول إن هذا الجزء من المخطوطة كلها ليعقوب مؤيدا بهذه العبارات : « وروى غير يعقوب » . ص ١٣٢ ، « لم يروها يعقوب : ص ١٤١ » ، « إلى هاهنا عن غير يعقوب : ص ٢٤٩ » ، « عن غير يعقوب ص ٢٦٠ ، ٢٧٩ » ، « وبعدها أربعة أبيات ليست في كتاب يعقوب ص ١٥٦ » ، « وهاهنا بيت لم يروه يعقوب ، وهو في رواية خالد ص ١٥٨ » ، « آخر ما روى يعقوب : وهذه زيادات من شعر الخطيئة غير الرواية ص ٣١٢ » ، « رجع إلى كتاب يعقوب ص ١٥٧ » .

وإذا أضفنا إلى ما تقدم أن ابن النديم قد ذكر في الفهرست أن ابن السكيت قد صنع - فيما صنع من دواوين - ديوان الخطيئة^(١) وأنه قد اشتهر بميله إلى التأليف الأقوى حتى ألف

(١) الفهرست ص ١٥٢ .

كتابي إصلاح المنطق ، وتهذيب الألفاظ ، وقد قال فيه أبو العباس اللبرد : ما عبر على جسر بغداد كتاب في اللغة مثل إصلاح المنطق ، ولم أر للبغداديين كتابا خيرا منه . وقال البعض : إن ابن السكيت كان باللغة أعلم منه بالنحو ، وإذا عرفنا غلبة الشرح اللغوي المستفيض على شرح أبيات المخطوطة من جهة ، واستطراده إلى إيراد مترادفات وفوائد لغوية كثيرة قد تبلغ عدة أسطر من جهة أخرى ^(١) اطماننا إلى أن هذا القسم الأول من المخطوطة لابن السكيت ، والقسم الثاني لمن نقل المخطوطة عن مخطوطة أخرى كانت تحمل اسم شارح آخر غير ابن السكيت . وأنا أعتقد أن المخطوطة كلها باحتوائها على عدة كتب - من بينها شرح ديوان الخطيئة - كانت عدة مختارات مفيدة أراد جامعها ^(٢) الاستفادة منها وقت الفراغ ، وضمها في مجلد واحد .

القسم الثاني من المخطوطة :

وهو ما أضافه الكاتب إلى شرح ابن السكيت في القسم الأول ليكون لديه أو في نسخة لديوان الخطيئة وعليها أو في شرح له بمقارنته بشرح السكري :

ونلاحظ على هذا القسم أنه رديء الخط غير واضح ، دقيق الكلمات بحيث أنه كتب في سبع ورقات ما كان يجدر به أن يكتبه في مثلها . ويغلب على شرح هذا القسم الإيجاز التام في الشرح اللغوي ، والاختصار في إيراد الروايات المختلفة ، ولذلك فهذا الجزء أقل قيمة من الناحية اللغوية من جهة ، ويؤيد نسبة القسم الأول إلى ابن السكيت من جهة أخرى .

إذن أستطيع أن أقول مطمئنا إن مخطوطة مكتبة عاطف أفندي هي ديوان الخطيئة بشرح ابن السكيت ^(٣) ، ولا يعيها إلا عدم النص على هذا صراحة في صدر المخطوطة

(١) كما جاء في إيراده ألفاظ النبقات الصحرافية وغيرها (انظر فهرس الفوائد رقم ١٧) .

(٢) وقد وجدت بالمخطوطة عبارة أضيفت إلى الشرح ونص فيها على من أضافها وهو الشهاب محمود

الحفاجي (انظر ص ١٤٦) . (٣) وإذا رجعنا إلى فهرس الرواة وجدنا أنهم من أساتذة ابن السكيت الذين روى عنهم ، وهذا ما يؤيد نسبة الشرح الموجود في المخطوطة إليه .

وفي نهايتها ، كما اعتادت المخطوطات الأخرى أن تفعله ، كذلك لم يذكر عليها تاريخ كتابتها
أو اسم مالكها .

تبويب القصائد وتنظيمها في هذه الطبعة :

أما طريقة تنظيمي لهذه الطبعة ، فقد حاولت :

أولا : التقديم للقصيدة بمقدمة أذكر فيها تاريخ المدوح .

ثانيا أن أذكر النص ثم أذكر شرحه ، بعد قسمه قسمين أو ثلاثا : أذكر المقدمة
الغزلية أولا ، ثم أبيات الرحلة ، ووصف الناقة - إن وجدت - ثانيا ، ثم أبيات المدح
أو الهجاء ثالثا .

ثالثا : رتبت قصائد الديوان حسب الموضوعات : بدأت أولا بباب المديح ثم بباء الهجاء ،
ثم ثلثت بباب ذكرت فيه المقطوعات الغزلية أو التي كانت مقدمات لقصائد وموضوعها
الرحلة ووصف الناقة ، أو ما وجد للحطيئة من قصائد قليلة في الفخر والحكمة وغيرها .
وفي النهاية ذكرت القصائد والمقطوعات التي لم تذكر في المخطوطات وأوردتها كتب الأدب .
رابعا : حاولت في باب المدح أن أرتب القصائد - ما أمكن - حسب ترتيبها التاريخي :
فجمعت القصائد التي ظننت أنها قيلت في الجاهلية ، ثم أعقبها بما قيل في الإسلام ، ويدل عليه
قرائن قوية .

وحاولت ضم مدائح كل مدوح في مكان واحد ، ثم رتبت المدوحين حسب قربهم أو
بعدهم من قبيلة الحطيئة : فذكرت أولا من يمتنون إلى عبس وهم بشر السكلابي وعيينة وخارجة
الغزاريان ثم شبت وعروة العبسيان ، ثم من يمتنون إلى قيس عيلان : عبد الله بن جدعان
القرشي ثم من تميم بن عاصم بن عبيد وبنى كليب وبنى مقلد وبنى نهشل ، ووقاص التميمي .
ثم انتقلت إلى ربيعة ومنها بكر فذكرت مدائحه في طريف الحنفى ثم بنى عوف بن عمرو
وأهل القرية ، ثم ذكرت من ينتمون إلى اليمن : زيد الخيل وأوسا الطائي ويزيد الحارثي .
وبدأت بعدها في المدائح التي أظن أنها إسلامية : فبدأت ببيغض الذي قال فيه الحطيئة

أكثر مدائحهم وأهمها وأقواها ، ثم ذكرت مدائحهم في عمر بن الخطاب وأبي موسى الأشعري ثم الوليد بن عقبة ثم سعيد بن العاص وأخيرا ذكرت مَنْ لم أعرف لهم ذكرا في كتب التاريخ أو موضعهم بالضبط : وهم الأعور وأبو عقيل عمرو الثقفي وعلقمة بن هوذة .

وكذلك فعلت في مقطوعاته الهجائية : فذكرت ما هجا به من يمتون إليه بأقوى الصلات : عائلته : أمه ، إخوته ، زوجته ... ثم المقطوعات التي هجاها بقيبائه (بنى عبس) ومن ينتمون إليها ثم من يبتعدون عنها ولا يمتون إليها بصلة القرابة .

خامسا : قسمت القصيدة إلى مقدمة غزلية ثم وصف الناقة - إن وجد - ثم الغرض الرئيسي : المدح أو الهجاء . وذكرت أبيات كل قسم برمتها ثم شرحتها بيتا بيتا حتى إذا ما انتهيت منه انتقلت إلى ذكر القسم الثاني ثم شرحة كالقسم الأول ، وهكذا ، وقد سلكت هذه الطريقة لكي أقدم للقارئ النص برمته ، فيستطيع أن يقرأ الشعر كاملا خلوا مما كان يفصل البيت عن أخيه من شرح قد يمتد إلى عدة سطور أو صفحات وبذلك يقطع جمال الشعر ، ويتعب القارئ الذي يريد أن يقرأ قصيدة فيضطر - تبعا للنظام القديم - إلى استيعاب القصيدة في عدة صفحات متتالية ، وقد يقطع تصفحها كلها مزاجه الفني ، فهذه الطريقة التي ذكرتها أكثر إراحة للنفس من الناحية السيكولوجية ومن الناحية الفنية .

سادسا : قبل شرح البيت أذكر رواياته المختلفة ، ثم أذكر الشروح مبتدئا بما جاء في مخطوطة ع فاضع الرمز (ع) أولا ثم أذكر الشرح بين معقوفين ثم أنتهي بما جاء في هامش (ع) ثم ما جاء في (ع) عن غير ابن السكيت والذي ذكر في المخطوطة بعد لفظة (غيره) - ثم أذكر ما جاء في مخطوطة السكري اعتمادا على طبعة جولد تسهر بعد الرمز (م) - ثم أذكر ما جاء في مختارات ابن الشجري عن السجستاني رامزا إليه بالرمز (م) وأخيرا أذكر ما جاء في المراجع الأخرى وأهمها اللسان (ل) وكامل المبرد وغيرها بهذا الترتيب .

وإذا عن لي شرح أو تعليق أورده بعد إشارة أقول . وهناك بعض مواضع في شرح السكري ذكرت بعد الرمز (ع) وقد فسره جولد تسهر بأنه اختصار لاسم أبي سعيد السكري ، فاكثفت بذلك الرمز دون الإشارة إليه .

سابقاً : اعتمدت في نص الأبيات على مخطوطة ع رواية وضبطاً وعدداً ، فما زاد عليها في مخطوطة هـ أو غيرها أوردته أثناء الشرح في موضعه بين شَرْحَي البيتين اللذين قبله وبعده ^(١) وقد أشرت إلى الزيادات في أول القصيدة في الهامش عند ذكر المراجع التي ذكرت فيها القصيدة والأبيات التي يحتوى عليها كل مرجع من القصيدة .

هذا وقد أفدت من تعليقات جولد تسيهر ، وأعنى بها تلك الشواهد التي أوردتها مساندة لمعنى من المعانى وكد في إخراجها من المراجع ، فأضفتها في هذه الطبعة بعد إضافات كثيرة إليها ، غير منسكرك ذلك الجهد الذى قام به ذلك المستشرق العظيم في نشر الديوان منذ أكثر من ٦٥ عاماً .

هذا ، وأود أن أذكر ملاحظة أخيرة وهى أننى حينما قابلت بين أكثر الروايات المختلفة وجدت أن ابن السكيت قد ذكر في تلك المخطوطة أشهر رواية للبيت أو أصحابها . وبما يستدل على ذلك أنها تكون غالباً الرواية التي تستحسنها أغلب المراجع وتنص على صحتها أو على مِيل العلماء إلى إثباتها . ولم يذكر في مخطوطة (ع) شاذاً أو مخالفاً لأصح الروايات إلا قليل جداً يمدّ على أصابع اليد الواحدة .

أما من ناحية الخطأ في هذه المخطوطة ؛ فكان نصيبها منه ضئيلاً جداً لا يتجاوز خمس مواضع أشرت إليها في موضعها .

ومن يتصفح هذه الطبعة سيجدها قد انفردت بقصيدة قافية ص ٣١٤ لم أعثر عليها في غيرها من المراجع أو المخطوطات ، كذلك فقد أُسْتُقِطَ منها معظم الأبيات التي نص العلماء على أنها موضوعة . وإن القارئ لهذه الطبعة سيجدها أصح من طبعة جولد تسيهر بكثير لضبط مخطوطة (ع) بالشكل الكامل من جهة ، ولما بذلته من جهد في ضبط الكلمات أو تحقيقها من جهة أخرى . وأستطيع أن أعلن أن نشر ديوان الخطيئة دون الرجوع إلى

(١) انظر ص ١٠٧ — ١٠٩ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٤ .

ن هذه الطبعة .

مخطوطة (ع) يعد عملاً ناقصاً بعيداً عن الدقة العلمية، بحيث أن مخطوطة (ع) يمكن أن يغنى نشرها عن مخطوطة السكري، وبطمأن الباحث في هذه الحالة إلى أنه يقرأ الخطيئة وشعره مضبوطاً من الناحية الفنية واللغوية .

وبعد ، فهأنذا أقدم للقارئ نبذة قصيرة عن تاريخ حياة الخطيئة بعد تقديم ترجمة مختصرة للرواة الثلاثة : ابن السكيت والسكري وأبي حاتم السجستاني ، راجياً أن يتجاوز القارئ عما يجده من هنات أو مالم أستطع الاهتداء إلى صحته لعدة أسباب أهمها صعوبة قراءة المخطوطة (ع) وخصوصاً في الجزء الثاني منها الذي ذكر تحت عنوان « مالم يرو عن يعقوب » ويعلم الله أني كنت أكد بصرى أحياناً في قراءة بعض الألفاظ كذا لا يقدره إلا من حاول نشر مثل هذه المخطوطة ذات الخط الدقيق ، إذ وصلت رداءته أو انطماس كثير من كلماته إلى حد أنه كان كفيلاً بتزهيدي في نشر ديوان الخطيئة .

وقد كنت في كثير من الأحيان ، حين يغمض على النص أو تصعب القراءة وبستحيل الفهم أراجع أستاذي العلامة مصطفى السقا فيبذل أقصى جهده معي في تبين الحقيقة ، ويوجهني أحسن التوجيهات التي كان لها أثر كبير في إقامة شعر الخطيئة ، وأنا أهدى إليه جزيل شكري .

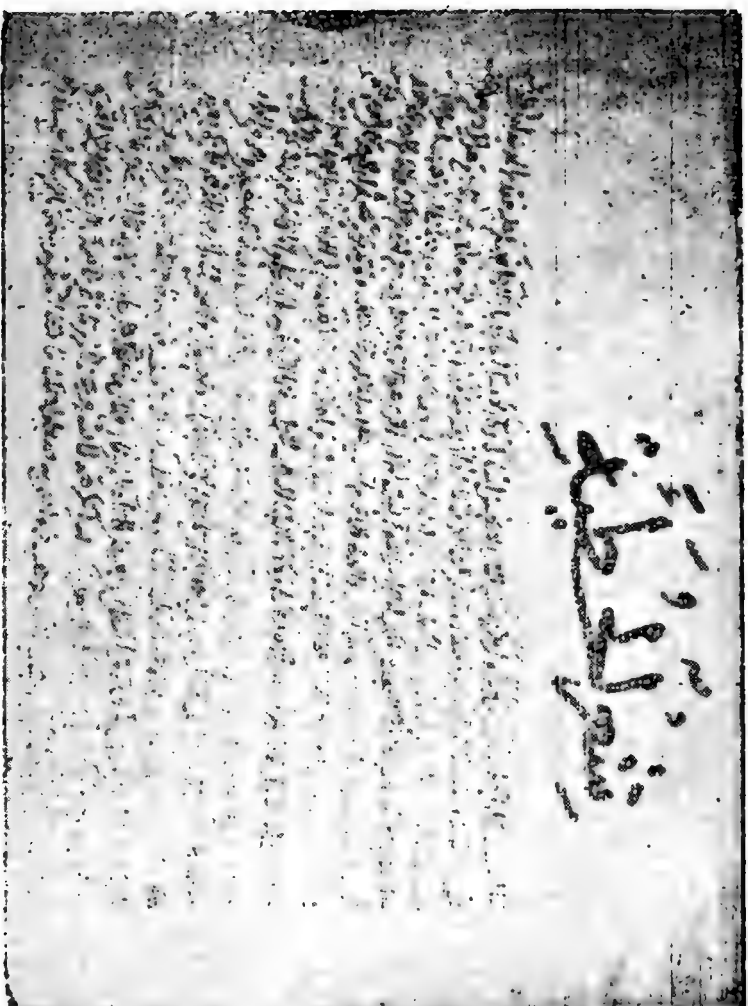
وقد عملت للديوان عدة فهارس تسهل على القارئ مراجعة مادة الأشعار والشروح والأعلام والفوائد اللغوية وغيرها مما يراه القارئ في نهاية هذه الطبعة .

وإني مدين بالشكر لإدارة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية على ما أمدتني به من مخطوطات . كما أوجه عظيم الثناء إلى شركة مصطفى البابي الحلبي التي قامت بنشر هذا الديوان على نفقتها وبذات أعظم ما لديها من عمل فني في إخراجه .

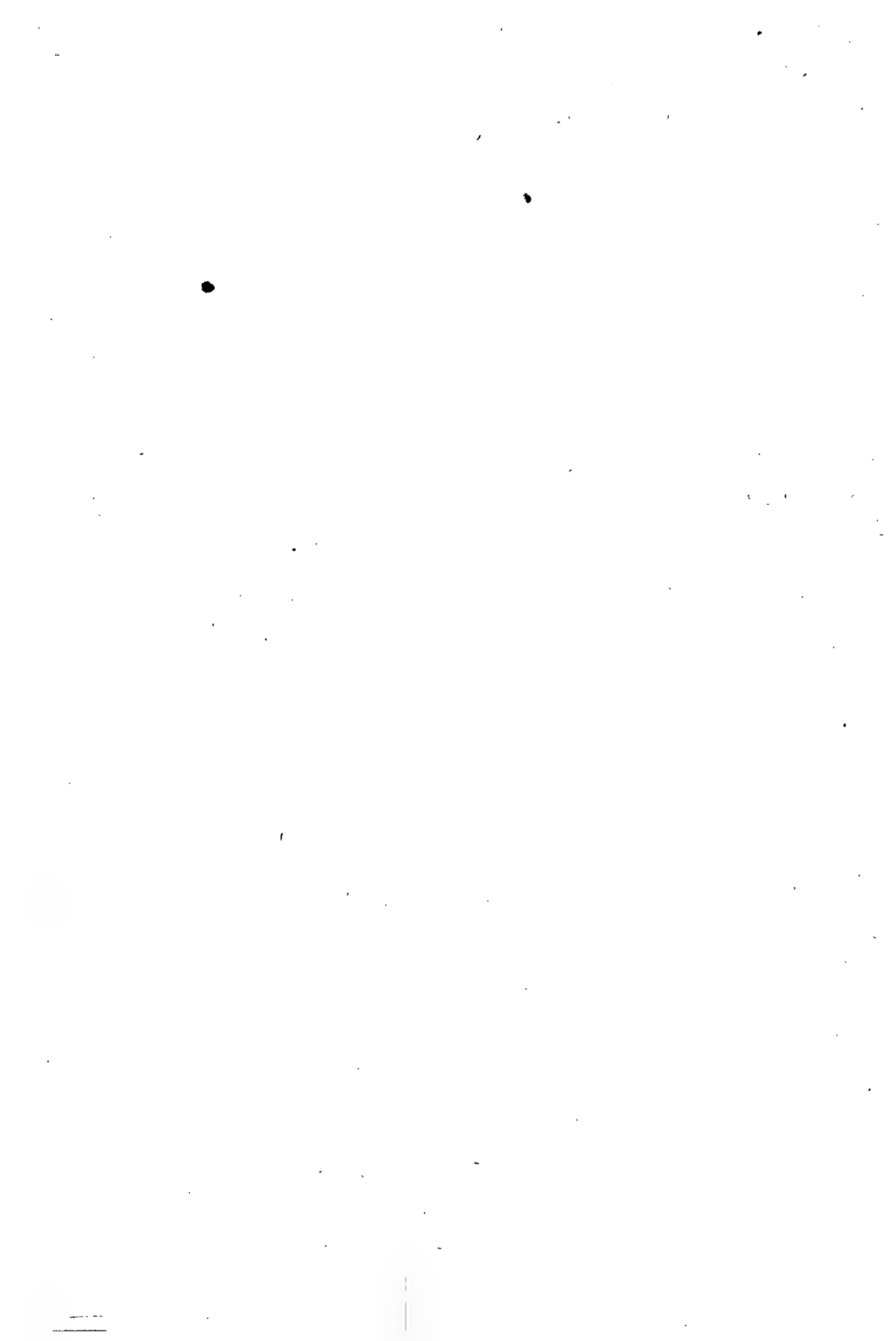
والله أسأل أن يوفقنا إلى خدمة العلم وأن تكون حقيقةتنا دائماً أكبر من ظاهرها ؟

نعمانه أمين ط

المبাসية في يوم الثلاثاء } ٤ من صفر ١٣٧٨ هـ
١٨ من أغسطس ١٩٥٨ م



صورة الصفحة اليسرى من الورقة الأولى من مخطوطة
مكتبة عاطف التي رمز إليها بالرمز ع



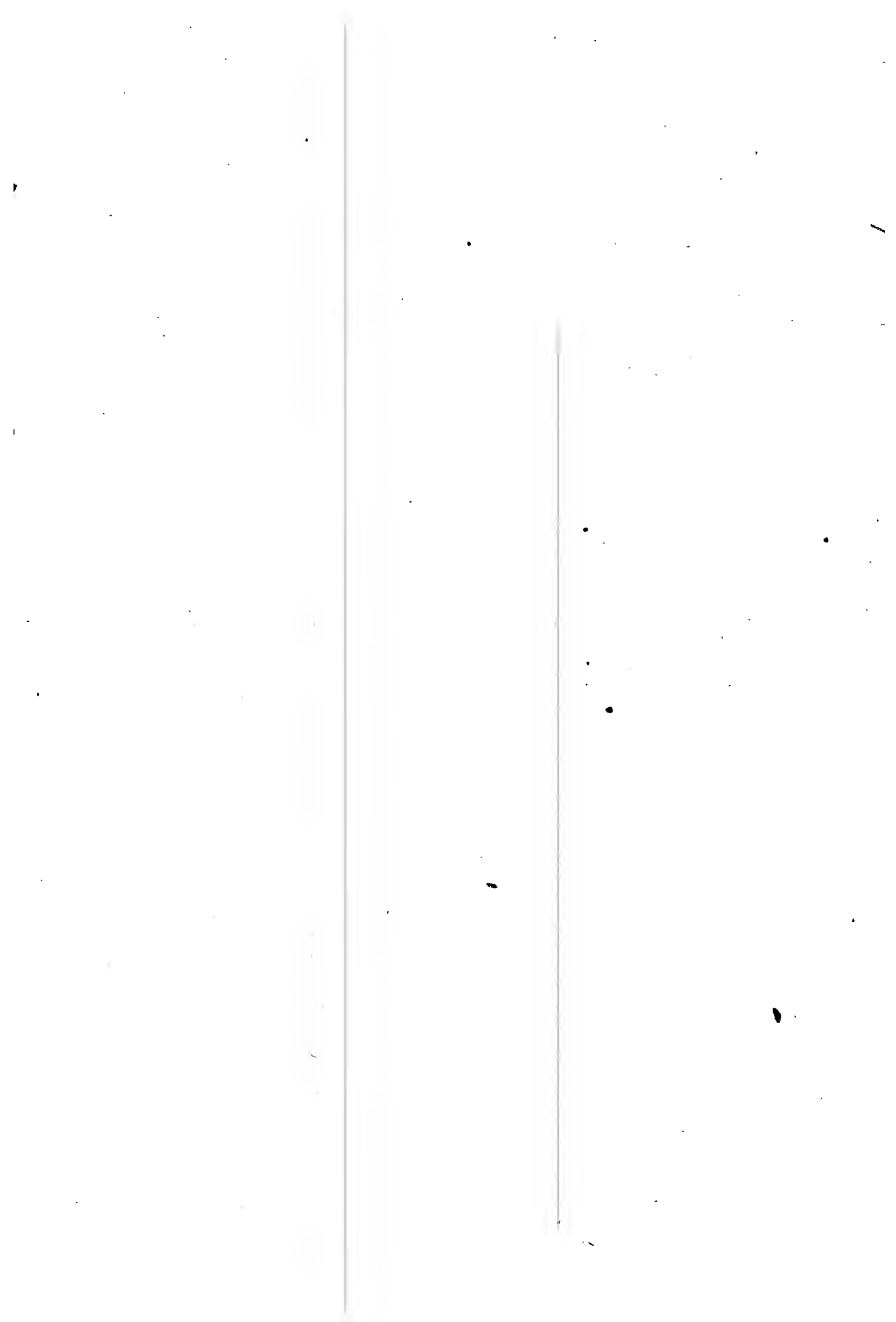


صورة الورقة الخامسة والثلاثين من مخطوطة ع

١٠٠
 ١٠١
 ١٠٢
 ١٠٣
 ١٠٤
 ١٠٥
 ١٠٦
 ١٠٧
 ١٠٨
 ١٠٩
 ١١٠
 ١١١
 ١١٢
 ١١٣
 ١١٤
 ١١٥
 ١١٦
 ١١٧
 ١١٨
 ١١٩
 ١٢٠
 ١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠
 ٢٠١
 ٢٠٢
 ٢٠٣
 ٢٠٤
 ٢٠٥
 ٢٠٦
 ٢٠٧
 ٢٠٨
 ٢٠٩
 ٢١٠
 ٢١١
 ٢١٢
 ٢١٣
 ٢١٤
 ٢١٥
 ٢١٦
 ٢١٧
 ٢١٨
 ٢١٩
 ٢٢٠
 ٢٢١
 ٢٢٢
 ٢٢٣
 ٢٢٤
 ٢٢٥
 ٢٢٦
 ٢٢٧
 ٢٢٨
 ٢٢٩
 ٢٣٠
 ٢٣١
 ٢٣٢
 ٢٣٣
 ٢٣٤
 ٢٣٥
 ٢٣٦
 ٢٣٧
 ٢٣٨
 ٢٣٩
 ٢٤٠
 ٢٤١
 ٢٤٢
 ٢٤٣
 ٢٤٤
 ٢٤٥
 ٢٤٦
 ٢٤٧
 ٢٤٨
 ٢٤٩
 ٢٥٠
 ٢٥١
 ٢٥٢
 ٢٥٣
 ٢٥٤
 ٢٥٥
 ٢٥٦
 ٢٥٧
 ٢٥٨
 ٢٥٩
 ٢٦٠
 ٢٦١
 ٢٦٢
 ٢٦٣
 ٢٦٤
 ٢٦٥
 ٢٦٦
 ٢٦٧
 ٢٦٨
 ٢٦٩
 ٢٧٠
 ٢٧١
 ٢٧٢
 ٢٧٣
 ٢٧٤
 ٢٧٥
 ٢٧٦
 ٢٧٧
 ٢٧٨
 ٢٧٩
 ٢٨٠
 ٢٨١
 ٢٨٢
 ٢٨٣
 ٢٨٤
 ٢٨٥
 ٢٨٦
 ٢٨٧
 ٢٨٨
 ٢٨٩
 ٢٩٠
 ٢٩١
 ٢٩٢
 ٢٩٣
 ٢٩٤
 ٢٩٥
 ٢٩٦
 ٢٩٧
 ٢٩٨
 ٢٩٩
 ٣٠٠
 ٣٠١
 ٣٠٢
 ٣٠٣
 ٣٠٤
 ٣٠٥
 ٣٠٦
 ٣٠٧
 ٣٠٨
 ٣٠٩
 ٣١٠
 ٣١١
 ٣١٢
 ٣١٣
 ٣١٤
 ٣١٥
 ٣١٦
 ٣١٧
 ٣١٨
 ٣١٩
 ٣٢٠
 ٣٢١
 ٣٢٢
 ٣٢٣
 ٣٢٤
 ٣٢٥
 ٣٢٦
 ٣٢٧
 ٣٢٨
 ٣٢٩
 ٣٣٠
 ٣٣١
 ٣٣٢
 ٣٣٣
 ٣٣٤
 ٣٣٥
 ٣٣٦
 ٣٣٧
 ٣٣٨
 ٣٣٩
 ٣٤٠
 ٣٤١
 ٣٤٢
 ٣٤٣
 ٣٤٤
 ٣٤٥
 ٣٤٦
 ٣٤٧
 ٣٤٨
 ٣٤٩
 ٣٥٠
 ٣٥١
 ٣٥٢
 ٣٥٣
 ٣٥٤
 ٣٥٥
 ٣٥٦
 ٣٥٧
 ٣٥٨
 ٣٥٩
 ٣٦٠
 ٣٦١
 ٣٦٢
 ٣٦٣
 ٣٦٤
 ٣٦٥
 ٣٦٦
 ٣٦٧
 ٣٦٨
 ٣٦٩
 ٣٧٠
 ٣٧١
 ٣٧٢
 ٣٧٣
 ٣٧٤
 ٣٧٥
 ٣٧٦
 ٣٧٧
 ٣٧٨
 ٣٧٩
 ٣٨٠
 ٣٨١
 ٣٨٢
 ٣٨٣
 ٣٨٤
 ٣٨٥
 ٣٨٦
 ٣٨٧
 ٣٨٨
 ٣٨٩
 ٣٩٠
 ٣٩١
 ٣٩٢
 ٣٩٣
 ٣٩٤
 ٣٩٥
 ٣٩٦
 ٣٩٧
 ٣٩٨
 ٣٩٩
 ٤٠٠
 ٤٠١
 ٤٠٢
 ٤٠٣
 ٤٠٤
 ٤٠٥
 ٤٠٦
 ٤٠٧
 ٤٠٨
 ٤٠٩
 ٤١٠
 ٤١١
 ٤١٢
 ٤١٣
 ٤١٤
 ٤١٥
 ٤١٦
 ٤١٧
 ٤١٨
 ٤١٩
 ٤٢٠
 ٤٢١
 ٤٢٢
 ٤٢٣
 ٤٢٤
 ٤٢٥
 ٤٢٦
 ٤٢٧
 ٤٢٨
 ٤٢٩
 ٤٣٠
 ٤٣١
 ٤٣٢
 ٤٣٣
 ٤٣٤
 ٤٣٥
 ٤٣٦
 ٤٣٧
 ٤٣٨
 ٤٣٩
 ٤٤٠
 ٤٤١
 ٤٤٢
 ٤٤٣
 ٤٤٤
 ٤٤٥
 ٤٤٦
 ٤٤٧
 ٤٤٨
 ٤٤٩
 ٤٥٠
 ٤٥١
 ٤٥٢
 ٤٥٣
 ٤٥٤
 ٤٥٥
 ٤٥٦
 ٤٥٧
 ٤٥٨
 ٤٥٩
 ٤٦٠
 ٤٦١
 ٤٦٢
 ٤٦٣
 ٤٦٤
 ٤٦٥
 ٤٦٦
 ٤٦٧
 ٤٦٨
 ٤٦٩
 ٤٧٠
 ٤٧١

در چشم الاواخ

وَمَا عَلَّمُوا الْقُرْآنَ لِغَشْوٍ ۚ وَمَا عَلَّمُوا الْقُرْآنَ لِغَشْوٍ ۚ وَمَا عَلَّمُوا الْقُرْآنَ لِغَشْوٍ ۚ



صورة الورقة الأولى من خطوط مكتبة الفاتح





تراجم الشارحين والرواة

(١) ابن السكيت

هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق المعروف بابن السكيت، والسكيت: لقب أبيه إسحاق عرف به لأنه كان كثير السكوت طويل الصمت ، وكان من أهل دورق بلدة من كور الأهواز في خوزستان ، وبها ولد ابنه ، ثم انتقل إلى بغداد . وكان إسحاق رجلا صالحا، من أصحاب الكسائي حسن المعرفة بالعربية ، فهم بأن يلحق ابنه علوم الأدب ، وسعى طالبا من الله أن يوقفه إلى ذلك ، فأجبت دعوته . فلما بلغ الولد أشده ، أخذ يختلف على الأئمة ، فروى عن الأصمعي^(١) وأبي عبيدة^(٢) والفراء^(٣) وأبي عمرو الشيباني^(٤) . وابن الأعرابي^(٥) وغيرهم ، وأخذ عنهم النحو واللغة والشعر ، فأضحى عالما مبرزاً ، وراويّة ثقة . روى عنه : أبو عكرمة الضبي وأبو سعيد السكري وغيرهما . قال أبو العباس ثعلب : أجمع أصحابنا أنه لم يكن بعد ابن الأعرابي أعلم باللغة من ابن السكيت .

ومما يروى أنه كان وهو حدث يحضر مجلس أبي الحسن على اللحياني ، فعزم اللحياني على أن يملئ نوادره ضعف ما أملئ سابقاً ، فقال يوماً في مجلسه : تقول العرب : « مثقل استعجان

(١) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب ، كان عمدة النحو وإمام اللغة والغريب والأخبار في زمانه . وكان أعلم الناس بالشعر ، وله في اللغة اليد الفراء ، فاختصه الرشيد بخدمته . وعن الأصمعي أخذ كثيرون من الفضلاء والأدباء وكتبه كثيرة جداً بعضها مطبوع . ولد سنة ١٢٣ هـ واختلف في سنة وفاته ف قيل إنه مات سنة ٢١٣ وقيل سنة ٢١٥ وقيل في صفر سنة ٢٢٦ وقيل سنة ٢١٧ .

(٢) هو علامة البصرة معمر بن المنفى التيمي ولد سنة ١١٠ هـ وتوفي سنة ٢٠٧ أو سنة ٢٠٩ أو سنة ٢١١ أو سنة ٢١٣ . وكان أعلم الناس باللغة وأخبار العرب ، عالماً بالشعر والغريب وأخبار العرب . وله مع الأصمعي وغيره من علماء عصره مباحثات خطاؤه في بعض آرائه . ومن أشهر ما وصلنا من مصنفاته كتاب نقائض جرير والفرزدق الذي نشره المستشرق بيفان سنة ١٩٠٥ بليدن .

(٣) هو أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي النحوي الكوفي الشهير بالفراء ، وهو أحد أئمة العربية الذين يحجج برواياتهم . وكان ديناً ورعاً يحب الكلام ويميل إلى الاعتزال توفي بطريق مكة سنة ٢٠٧ هـ عن ٦٧ سنة .

(٤) تقدمت ترجمته ص ٩ .

(٥) تقدمت ترجمته ص ٩ .

بذقنه « فقام إليه ابن السكيت فقال : يا أبا الحسن ، إنما هو « مثقل استعان بدقنيه »
تريدون الجمل إذا نهض بحمله استعان بجنبه . فقطع أبو الحسن الإملاء . فلما كان
الجلس الثاني ، أملى فقال : تقول العرب : هو جارى مكاشرى . فقام إليه ابن السكيت فقال :
أعزك الله ، وما معنى مكاشرى ، إنما هو : « مكاشرى » أى كسر يلقى إلى كسر بيته .
قال : فقطع الاحيانى الإملاء ، فما أملى بعد ذلك شيئاً .

وكان يعقوب يقول : أنا أعلم من أبى بالنحو ، وأبى أعلم منى بالشعر واللغة . وقال البعض :
إن ابن السكيت كان باللغة أعلم منه بالنحو .

وأخبر أبو عثمان المازنى قال : اجتمعت بآبن السكيت عند محمد بن عبد الملك الزيات
الوزير ، فقال محمد بن عبد الملك : سل أبا يوسف عن مسألة . فكرهت ذلك ، وجعلت
أتباطأ وأدافع مخافة أن أوحشه لأنه كان صديقاً لى . فألح على محمد بن عبد الملك ، وقال : لم
لا تسأله ؟ فاجتهدت فى اختيار مسألة سهلة ، لأقارب يعقوب ، فقلت له ما وزن « نكتل »
من الفعل من قوله تعالى : فأرسل معنا أخانا نكتل .
فقال لى : نفعل .

قلت : ينبغى أن يكون ماضيه « كتل »

فقال : لا ، ليس هذا وزنه ، إنما هو نفعل .

فقلت : نفعل كم حرف هو ؟

قال : خمسة أحرف .

قلت : فنيكتل كم حرف هو ؟

قال : أربعة أحرف .

فقلت : أليكون أربعة أحرف بوزن خمسة أحرف ؟ فانقطع وخجل وسكت .

فقال محمد بن عبد الملك : فإنما تأخذ كل شهر ألفى درهم على أنك لا تحسن وزن « نكتل »

قال : فلما خرجنا ، قال لى يعقوب : هل تدري ما صنعت ؟ فقلت له : والله لقد قاربك
جهدى ، ومالى فى هذا ذنب .

وكان بدء أمر ابن السكيت وترقيته عند الخلفاء أنه كان يؤدب مع أبيه صبيان العامة بمدينة السلام في درب القنطرة، حتى احتاج إلى السكسب، فجعل يتعلم النحو واللغة، ويختلف إلى العلماء. ثم جمل يعقوب يختلف إلى قوم من أهل القنطرة، ولما خرج يعقوب إلى سر من رأى في أيام جعفر المتوكل، صيره عبد الله بن يحيى بن خاقان عند المتوكل فضم إليه وأسنى له الرزق، وأرغد عليه العيش. قال عبد الله بن عبد العزيز: ونهيته حين شاورني فيما دعاه إليه المتوكل من منادمته فلم يقبل قولي، وحمله على الحسد، وأجاب إلى مادعي إليه، وكان المتوكل قد ألزمه تأديب ولده المعتز بالله، فلما جلس عنده قال له:

بأى شيء يحب الأمير أن نبدأ؟

فقال المعتز: بالانصراف!

قال يعقوب: فأقوم.

قال المعتز: فأنا أخف نهوضاً منك.

فقام فاستمعجل، فمترأً بسرأويله، فسقط، والتفت إلى يعقوب خجلاً، وقد احمر وجهه، فأنشد يعقوب:

يصاب الفتى من عثرة بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرجل

فعرثته بالقول تذهب رأسه وعثرته بالرجل تبرأ على مهل

فلما كان من الغد، دخل يعقوب على المتوكل، فأخبره بما جرى، فأمر له بخمسين ألف درهم، وقال: قد بلغنى البيتان.

ثم مالبت أن تغير المتوكل عليه، وكان سبب ذلك أن ابن السكيت كان شيعياً، فبينما هو مع المتوكل في بعض الأيام، إذ مر بهما ولداه المعتز والمؤيد، فقال له: من أحب إليك: أبنائى هذان أم الحسن والحسين؟

فغضَّ يعقوب من ابنه، وقال: قنبر خير منهما، وأثنى على الحسن والحسين، فأمر الأتراك فداسوا بطنه، فحمل إلى داره، فمات بعد يوم و بعض يوم. وقيل: حمل ميتاً في بساط.

وقيل : بل قال : سلوا لسانه من قفاه . ففعلوا به ذلك ، فمات . وروى في قتله غير ذلك . قيل إن المتوكل أمره بشفم رجل من قريش فلم يفعل ، فأمر القريشي أن ينال منه ففعل ؛ فأجابه يعقوب ، فعند ذلك قال المتوكل : أمرتك أن تفعل ، فلم تفعل ، فلما شتمك فعلت . فأمر بضربه ، فحمل من عنده صريعا ، وقيل مقتولا . ثم وجه المتوكل من الغد إلى ابنه يوسف عشرة آلاف درهم ، وقال : هذه دية والدك رحمه الله تعالى . وقال أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن النحاس : كان أول كلام المتوكل مع ابن السكيت مزاحا ، ثم صار جدّا . فقال عبيد الله بن عبد العزيز - وهو الذي نهى يعقوب عن اتصاله بالمتوكل -

نهيتك يا يعقوب عن قرب شادن إذا ماسطا أربي على كل ضيغم
فدق ، واخسُ ما استحسيت به لا أقول إذ

عثرت لها ، بل لليدين وللقم

وقد اختلف في تاريخ وفاته ، ولم يذكروا تاريخ مولده على التحديد . قال الخطيب ^(١) « بلغني أن يعقوب بن السكيت مات في رجب من سنة ثلاث ، وقيل : من سنة أربع ، وقيل : من سنة ست وأربعين ومائتين . وقد بلغ ثمانيا وخمسين سنة » وكذلك قال ابن خلكان إنه مات في ليلة الاثنين ٥ رجب سنة ٢٤٤ ، وقيل سنة ٢٤٦ ، وقيل سنة ٢٤٣ ونحو ذلك عن ياقوت . وقد اتفق الحافظ ابن كثير ^(٢) في تاريخه والعماد في الشذرات ^(٣) والسيوطي في بغية الوعاة ^(٤) على أنه مات في سنة ٢٤٤ ، وعلى هذا فيكون تاريخ مولده نحو سنة ١٨٦ إذ لم يختلفوا في أنه عاش ٥٨ سنة .

ولابن السكيت شعرائق ، بيد أنه قليل ، فمن ذلك قوله :
نفسى تروم أمورا لست مدركها مادمت أحذر ما يأتى به القدر

(١) تاريخ بغداد للخطيب ١٤ / ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٢) تاريخ الحافظ ابن كثير ١٠ / ٣٤٦ .

(٣) شذرات الذهب لابن العماد ٢ / ١٠٦ .

(٤) بغية الوعاة للسيوطي ٤١٩ .

ليس ارتحالك في كسب الغنى سفرأ لكن مقامك في ضر هو السفر
ومن ذلك أيضا قوله :

ومن الناس من يحبك حبا ظاهر الحب ليس بالتقصير
فإذا ما سأله عشر فلس الحق الحب باللطيف الخبير
ومنه (من أبيات) .

وكل الحادثات إذا تناهت فموصول بها فرج قريب ا

كتبه : وجاء في مقدمة كتابه الألفاظ : «وكان مقداما جسورا على العلماء، شيعيا، ولاحظ له من السنن والدين ، وله تصانيف كثيرة في النحو ومعاني الشعر وتفسير دواوين العرب ، زاد فيها على من تقدمه ، ولم يكن بعد ابن الأعرابي مثله » .

وذكر ابن النديم في الفهرست كتبه فقال: والشعراء الذين عمل ابن السكيت شعرهم هم : أبو النجم العجلي ، وأبو نواس ، وأعشى باهلة ، والأعشى الكبير ، وبشر بن أبي خازم ، وتميم بن أبي مقبل ، وجريز ، والحطيئة ، وحيد بن الأرقط ، وحيد بن ثور الرياحي ، والخنساء ، وزهير ، وسحيم بن وثيل العاملي الرياحي ، وطرفة ، والعباس بن مرداس ، وعروة ابن الورد والسكيت، وليبد ، ومهلل ، والناطقة الجعدي .

ومما نشر من كتبه :

(١) كتاب مختصر تهذيب الألفاظ، نشره الأب لويس شيخو اليسوعي وطبعه الطبعة الثانية في بيروت سنة ١٨٩٧ .

(٢) كتاب القلب والإبدال، نشره أوغست هفتر في بيروت سنة ١٩٠٣ .

(٣) كتاب الأضداد، وقد نشر في مجموعة من كتب الأضداد للأصمعي والسجستاني وابن السكيت بعناية المستشرق الدكتور أوغست هفتر في بيروت سنة ١٩١٢ .

(٤) كتاب إصلاح المنطق وهو من أم كتبه : وقد نشره في مجموعة ذخائر العرب

الأستاذان أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون عن دار المعارف بمصر وطبع الطبعة الثانية سنة ١٩٥٦ .

(٥) وما أعزّم نشره له - إن شاء الله - شرح ديوان الفابغة إذ عثرت له على مخطوطة نفيسة عليها تعليقات قيمة .

(٢) أبو حاتم السجستاني

هو سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد أبو حاتم الجشمي السجستاني من ساكني البصرة ، كان إماما في علوم القرآن واللغة والشعر .

أخذ عنه أبو بكر بن دريد والمبرد وغيرهما ، وكان أعلم الناس بالعروض وإخراج المعاني ، حاذقا بذلك ، دقيق النظر فيه . وقرأ سيبويه مرتين على الأخفش . وكان يُعَدُّ من الشعراء المتوسطين ، وعليه اعتمد أبو بكر ابن دريد في اللغة .

وكان صالحا عفيفا يتصدق كل يوم بدينار ، ويحتم القرآن في كل أسبوع .

وكان أبو حاتم كثير التصانيف في اللغة ، وصنف في النحو والقراءة .

وكانت وفاته في المحرم أو في رجب سنة ٢٤٨ هـ بالبصرة في خلافة المستعين ، وقيل سنة ٥٠ أو ٥٤ أو ٢٥٥ ، وقد قارب التسعين^(١) .

ومما طبع له من مصنفات^(٢) : كتاب المعمرين عن بطبعه المستشرق جولد تسيهر

في ليدن ١٨٩٦^(٢) وكتاب الأضداد (انظر ما قيل عنه في ترجمة ابن السكيت) .

(٣) أبو سعيد السكري

هو أبو الحسن بن الحسين بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن العلاء بن أبي صفرة بن المهلب

العتسكي المعروف بالسكري أبو سعيد النحوي اللغوي الراوية الثقة المسكث ولد سنة ٢١٢ هـ .

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ؛ وفزرة الألباء ص ٢٥١ ، وبغية الوعاة للسيوطي ، وتاريخ

ابن الأثير ٧ / ٤٦ والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن ١ / ٧٦٦ .

وكان شيوخه من فحول العلماء الأجلاء في اللغة والأدب ، وقد سمع يحيى بن معين وأبا حاتم السجستاني والعباس بن الفرغ الرياشي ومحمد بن حبيب والحارث بن أبي أسامة وأحمد بن الحارث الخزاز وعمر بن شبة وخلقا سواهم .

وكان من تلاميذه الذين أخذوا عنه واشتهروا بالإفادة منه في اللغة والأدب : محمد بن عبد الملك التارنجي ، ومحمد بن أحمد بن إبراهيم الحكيمي ، وأبوسهل بن زياد القطان وغيرهم .

وكان رحمه الله ثقة ديناً صادقاً يقرئ القرآن ، واشتهر برسوخ قدمه في النحو واللغة والأنساب ، حتى بذ معاصريه ، وكان راوية البصريين ومرغوباً في خطه لصحته .

مؤلفاته : وانتشر عنه من كتب الأدب شيء كثير مما لم ينتشر عن أحد من نظرائه ، وكان إذا جمع جمعاً فهو الغاية في الاستيعاب ، ومن مصنفاته : كتاب النقائض ، كتاب النبات ، كتاب الوحوش ، كتاب المناهل والقرى . كتاب الأبيات السائرة . وجمع أشعار جماعة من الشعراء منهم : امرؤ القيس . النابغة الذبياني . . النابغة الجعدي . قيس بن الخطيم . زهير . الخطيئة . لييد . جران العود النيمري . تميم بن أبي مقبل . دريد ابن الصمة . هذبة بن خشرم . أشعار اللصوص . الأعشى . مزاحم العقيلي . الأخطل .

ومما طبع له : (١) ديوان الهذليين : نشره القسم الأدبي بدار الكتب في ثلاثة أجزاء سنة ١٩٥٢ (٢) كتاب أشعار اللصوص نشرت قطعة منه في ليدن سنة ١٨٦٩ (٣) ديوان جران العود النيمري : نشره القسم الأدبي بدار الكتب سنة ١٩٣١ (٤) ، (٥) ديوان زهير وديوان كعب : نشرهما القسم الأدبي سنة ١٩٤٥ ، سنة ١٩٥٠ (٦) ديوان الخطيئة نشره جولد تسيهر (كما قلنا سابقاً) سنة ١٨٩٣ .

(٤) خالد بن كلثوم

وقد ذكر في فهرس الرواة من هذه الطبعة ص ٤١٦ في عدة صفحات في مخطوطة (ع) ،
(وه) . وجاء في (وه) ص ٣٠٣ : « ولا أدري مَنْ خالد هذا » وقد ذكر في (ع) في نفس
الموضع وفي نفس الصفحة السابقة (٣٠٣) أنه خالد بن كلثوم .
قال ابن النديم في الفهرست ص ٦٦ « ومن علمائهم أيضا - أى علماء الكوفيين -
ورواتهم خالد بن كلثوم الكلبي^(١) من رواية الأشعار والقبائل ، وعارف بالأنساب والألقاب
وأيام الناس ، وله صنعة في الأشعار والقبائل » .
ولم أجد عنه شيئا آخر غير ما ذكرت في غير « الفهرست » من المراجع .

(١) انظر فهرس الرواة ص ٤١٥ ، ٤١٦ من هذه الطبعة أمام « خالد » ، « الكلبي » .

ترجمة الخطيئة

نشأ الخطيئة خاملا في أول أمره ، إذ أنه من أسرة وضيفة ، تفكره أشد النكر ، وتجنّاه أفسى مجافاة ، فلاتحاول أن تعترف بنسبته إليها ، ولذلك تردّد نسبه بين عدّة آباء من جهة ، ودفعه ذلك إلى أن يتردّد بين قبائل مختلفة ، ينسب نفسه لتلك تارة ، فإذا غضب عليها نسب نفسه إلى أخرى .

ولعلّ أقدم بين يدي الكلام على الخطيئة بهذه المقدمة لأبين السبب في الاختلاط الشديد الذي نجمه في روايات الرواة عن حياته من جهة ، ولكي نُوطّن أنفسنا على أن نقف من هذه الروايات الكثيرة على تاريخ حياته موقف الشاك الممعن في الشك ، وذلك لكي نحاول أن نخرج منها بصورة أكثر قربا من الواقع الإنساني ، وأكثر قربا من شخصيته الحقيقية غير المطموسة ، التي عاش في إطارها في الجاهلية والإسلام .

اسمه ولقبه ونسبه وأسرته

اسمه : جرول^(١) بن أوس بن جُؤيّة بن مخزوم بن مالك^(٢) بن غالب بن قُطيّة بن عَبْس بن بغيض بن ريث^(٣) بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان .

كنيته : أبو مُلَيْكَة ، نسبةً إلى ابنته مُلَيْكَة .

(١) جرول في اللغة : الحجر .

(٢) هكذا في الأغاني ١٥٧ / ٢ ، وأسقط في الخزائن (٤٧٣ / ١) مالك ، والألف واللام من ريث .

(٣) خزائن الأدب ٤٠٩ / ١ ، غ ١٥٧ / ٢ .

لقبه : واختُلفَ في سبب تلقيبه بالخطيئة ، ف قيل : لُقِّبَ بذلك لقصره وقربه من الأرض ، ففي الصحاح : الخطيئة الرجل القصير .

وقال ثعلب : وسمَّى الخطيئةَ لدنামته .

وقيل : لقب بذلك لأنه شرط بين قوم ، ف قيل له : ما هذا ؟ فقال : حُطِيئة ! (يقال : حَطَّأً إذا شرط) .

وقيل : لقب بذلك لأنه كان مَحْطُوءَ الرَّجُل . وَالرَّجُلُ الْمَحْطُوءَةُ : التي لا أُخْصَصَ لها .

ف نرى من هذا مقدار ما يحيط باسم الخطيئة « جَرُول » ولقبه « الخطيئة » من التحقير والاتضاع .

نسبه : وقد شك المؤرخون القُدَامَى في نسبه ، فقال أبو الفرج : ونسبه مُتَدَاْفَعٌ بين القبائل ، وكان ينتمى إلى كل واحدة منها إذا غضب على الآخرين ^(١) ، وكان يدَّعى أنه ابن عمرو بن عاتمة أحد بني الحارث بن سَدُوس . وعن محمد بن سلام قال : كان الخطيئة ينتمى إلى بني ذهل بن ثعلبة ، فقال يمدحهم :

إِن الْيَمَامَةَ خَيْرُ مَا كُنْهَا أَهْلُ الْقَرْيَةِ مِنْ بَنِي ذُهَلٍ

قال : والقَرْيَةُ منازلهم ، ولم ينبت الخطيئة في هؤلاء ^(٢) . وكان الخطيئة إذا غضب على بني عبس يقول : أنا من بني ذهل ، وإذا غضب على بني ذهل قال : أنا من بني عبس ^(٣) ! قال الأصمعي : وقَدِمَ الخطيئة الكوفة منزل بني عَوْف بن عامر بن ذهل يسألهم ، وكان يزعم أنه منهم ^(٤) .

ومما سبق نرى إلى أي حد كانت حيرة الخطيئة ، واضطراب نفسه بسبب شعوره بالنقص لأنه لا يعرف له أباً بعينه ، أو قبيلة بعينها ، ويؤيد ذلك ما ذكره أبو الفرج : أنه سأل أمه ؟؟

(٢) المرجع السابق ١٥٨/٢

(٤) غ ١٥٨ / ٢ ، ١٥٩

(١) غ ١٥٧ / ٢

(٣) غ ١٥٨ / ٢

أبوه فخلطت عليه ، فهجأها^(١) ، ثم ساق هذا الخبر : « كان أوس بن مالك العنسي تزوج ابنة رياح بن عمرو بن عوف بن الحارث بن سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة ، وكان له أمة يقال لها « الضراء » فأعلقها بالخطيئة ، ورحل عنها . وكان لبنت رياح أخ يقال له : الأقم ، فولدت الخطيئة . فجاءت به شبيها بالأقم . فلما سألتها بنت رياح عن الطفل ، قالت لها : من أخيك ! وهابت أن تقول لها من زوجك ، فشبهته بأخيها ! فقالت لها : صدقت^(٢) !

إخوته : ولما مات أوس ، ترك ابنين من الحرّة هما أخوا الخطيئة من أبيه . أما الضراء أمه ، فقد تزوجت رجلاً من بني عبس ، فولدت له رجلين ، فكانا أخوي الخطيئة من أمه^(٣) ، وأعتقت بنت رياح الخطيئة ، وربّته ، فكان كأنه أحدهما ، وترك الأقم نخلًا باليمامة .

ميراثه : وأتى الخطيئة أخويه من أوس بن مالك ، وقد كانت أمه لما أعتقتها بنت رياح اعترفت أنها اعتلقت من أوس بن مالك ، فقال لهم : أفردوا إلى من مالكم قطعة . فقالوا : لا ، ولكن أقم معنا ، فنحن نواسيك ! فقال :

أمرتماني أن أقيم عليكما كلاً لعمري أيبكما الحباقي
عبدان خبزهما يشل بضبعه شل الأجير قلائص الوراق

وقد هجر أمه لما أبت أن تدله على أبيه . وسأل بني ذهل ميراثه من الأقم ، فأعطوه نخلات من نخل أبيهم ، فلم تقنعه النخيلات ، وأقام فيهم زماناً ، فسألهم ميراثه كاملاً من الأقم ، فلم يعطوه شيئاً ، وضر به ، فغضب عليهم وهجأهم^(٤) ، ثم عاد إلى بني عبس ،

(١) غ ١٦٠ / ٢ (٢) غ ١٥٩ / ٢ (٣) وهناك أخ للخطيئة تنسب إليه أبيات الخطيئة في أبي بكر في حرب الردة (انظر الديوان ص ٣٣٠) .

(٤) كما حدث للشاعر طرفة بن العبد بالنسبة لميراث أمه وردة .

وانتسب إلى أوس بن مالك^(١) .

وهكذا نرى الخطيئة الصبي أو الشاب شريدا بين أبويه أو آبائه الذين لا يعرف من بينهم أباه الحقيقي ، فينتسب إليه ، وهو يريد بين إخوته الذين يأتون عليه أن يعترفوا له بحقه في أن يرث كما ورثوا . ولعل هذا من أقوى الأسباب — إن لم يكن السبب الحقيقي — في طبع شخصية الخطيئة بالطابع « البوهيمي » وأعنى به الشخص الهائم دائما أبدا على وجهه في غير استقرار ، تلك الشخصية التي يصورها الأقدمون أحقر تصوير ، ناسين تلك العوامل القوية التي طبعته بطابعها ، والتي يمكن أن نلقى عليها أكبر المسئولية في تنشئة الخطيئة ، واتصافه بصفات ياباها الخلق الكريم كالبعزل .

أولاده وحياته العائلية :

ذكر المؤرخون أن امرأته كانت تسمى : « أمامة » ، وله ابنة تسمى « مُلَيْكَة » وكان يُكنى بها^(٢) . والظاهر أنها كانت — على عكس أبيها — جميلة إلى حد أن زعم الرواة أن الزبرقان حدثه نفسه بأن يتزوجها ، وأنهم بذلك أوغروا صدر امرأته هنيئة على الخطيئة^(٣) . ومن أولاده ولد يسمى إياسا^(٤) ، وآخر يسمى أوسا^(٥) . والظاهر أنه — كإنسان — كان يحب أولاده وزوجته ، ويدل على ذلك تلك القصة التي ذكرها أبو الفرج :

« أراد الخطيئة سفرا ، فأتته امرأته ، وقد قدّمت راحلته ليركب فقالت :

اذكر تحنّفاً إليك وشوقنا واذكر بناتك لمنهن صغار

فقال حطّوا لا رحلتُ لسفر أبدا^(٦) . وبهذا وبذلك الروح الشعرية التي ظهرت في مقطوعته التي يخاطب بها صهر حين أراد سجنه^(٧) ما يدل على أنه لم يكن مسلوبا من الحنان الإنساني الذي لا يخلو منه خلق إنسان إزاء أولاده وزوجته .

(١) غ ١٦١ / ٢ .

(٢) غ ١٧٣ / ٢ ، ١٧٨ ، (٣) غ ١٨١ / ٢ ، (٤) غ ٣٨ / ١٦

(٥) غ ١٧٧ / ٢ ، وذكر إفرام البستاني في الروائع ابنا آخر له يسمى سودة (المقدمة من الروائع

العدد ٢٩ ط) (٦) غ ١٧٧ / ٢ . (٧) ص ٥٠٨ من هذه الطبعة .

حياته في الجاهلية :

ليس من السهل معرفة السنة التي وُلد فيها الخطيئة ، والحياة التي كان يحياها ، ولكننا نستطيع أن نقول : إنه من غير شك كان قليل المنزلة ، بسبب أنه كان مغموز النسب ، وربما كان حقيراً مهيناً في صباه ، وبكفي للدلالة على ذلك وَشْمُهُ بهذه الصفة التي تكن في لفظة « الخطيئة » ، وكَم جَرِّ اسم هازيء على صاحبه من صنوف البلايا والرزايا أكثر مما تجره العيوب الجسمية والخلقية المختلفة . فالاسم هو عنوان الشخصية أو الصورة التي تؤثر على الشخص وتلقى عليه ظلالاً ما . فربما أطلق على شخص ما نَبَز أو اسم ساخر ، فيجمل هذا الاسم صاحبه ضحكة هزأة طول حياته . وأغلب الظن أن لقب الخطيئة قد أحاطه بهالة من التحقير والازدراء زادتة ألماً على الألم ، وهو المنبذ المضيع ، ولذلك كله ، ولما وهبه الله تعالى من هبة الشعر ، وطُء نفسه على الاتصال بكبار الشخصيات يمدحهم فإن أبوا عليه أن يعطوه هجاءهم . ومن اتصل بهم في الجاهلية : علقمة بن علاثة ، وقد فضله على عامر بن الطفيل في منافرة مشهورة ، وزيد الخليل ، وقد مدحه مرغماً خوفاً من بطشه^(١) ، وحاتم الطائي^(٢) وغيرهم كثير من فزارة وعبس ، ولم يصل إلينا إلا القليل من هذا الشعر بالنسبة لما قاله في الإسلام^(٣) .

في أوائل الإسلام :

يختلف المؤلفون في زمن إسلام الخطيئة ، فيرى ابن قتيبة أنه لم يسلم إلا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يجد له ذكراً فيمن وفد عليه من وفود العرب^(٤) ، ويرى غيره ومن جملتهم ابن حجر أنه أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . ولكنهم يتفقون جميعاً على القول أنه كان « رقيق الإسلام » فأسد الدين . وقد اشترك مع المرتدين في مقاومة أبي بكر الصديق ، وقد قال أبياتا في ذلك^(٥) . ولما انتصر أبو بكر على المرتدين ، وقع أسيراً سنة ١١

(١) الروائع لإفرايم البستاني عدد ٢٩ (المقدمة : و) .

(٢) ذيل الأمالي ص ١٥٢ (٣) الروائع (المقدمة و) .

(٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١٨٠ (٥) الديوان ص ٣٣٠

هجرية^(١) وقد أقلع عن الكفر وأسلم . والظاهر أنه كان حسن العقيدة ، لدرجة أنه اشترك في معركة القادسية سنة ١٤ هجرية في أوائل خلافة عمر . وأخذ على نفسه نصرته الدين بتحريض المسلمين على الاستبسال ضد الفرس^(٢) .

مع الزبرقان يقول الأستاذ إفرام البستاني بروح المتحامل على الشاعر الخطيئة : « فلم يترك شريفا معروفا حتى طرق بابه ، ولا حيا ونجيبا إلا نزل عليه من أبناء فزارة إلى أحياء عبس إلى القرشيين ، يرغبهم تارة في مديحه ، ويرهبهم طوراً بهجائه . وهم على كل حال لا يأمنون شر لسانه ، ولا يطمئنون إلى مايقوله فيهم ، وإن ظهر مدحا ، فكثير التشكي منه ، والتبرم من سلطته على الأعراض » .

ولعمري إن الذى دفع هذا الكاتب إلى ماقال ، هو أنه يريد أن يتصور حياة الشاعر المادى أو المعيشية ، فشاء خياله وبعض الصفات التى رماه بها بعض الإخباريين أو المؤرخين أن ينفعته بما نفعته به فى العبارة السابقة ، مع أنى قد قرأت الديوان بالإضافة إلى أخبار الشاعر فى كتب الأدب ، فلم أستطع أن أوولها هذا التأويل الذى ذكره فى عبارته السابقة التى نقلتها للقارىء . لا اعتقادا بأكثر ما فيها ، بل لأضع أمامه كيفية جرأة بعض الكتاب والعلماء والدارسين فى محاولتهم التهميم والاستنباط من النصوص والتهويل فيها حين كتابتها . والخروج بذلك عن مناهج العلم ، ومحاولة الاقتصاد فى التعبير اللفظى حتى نكون أمناء فى نقل التاريخ ، والحديث عن الشخصيات التاريخية حديث المنصف الفطن . لا حديث الذى يجرى وراء مؤرخ أو مؤرخين قدماء حاولوا أن يكتبوا فى شيء من العصبية وعدم تحكيم العقل أو المنطق . وأعنى به المنطق العقلى والنفسى مما . وإذا كان المؤرخ اللبناني الأستاذ إفرام البستاني يذكر تدليلا — على كل ما ذكره فى العبارة السابقة — حادثة الزبرقان مع الخطيئة وهجائه له ، فإن من يرجع إلى تلك الأخبار التى نقلتها بحذافيرها عن الكتب القديمة ، ووضعها أمام عيني القارىء المتفهم البصير الفطن ، ليجد أن الخطيئة لم يذنب فى أمر الزبرقان . وأن الحادثة فى غير حاجة إلى هذا التهويل الذى صاغها فيه الكاتب الفاضل . وأجد أنى فى غير حاجة إلى ذكر

تلك الحادثة فهي مذكورة في الديوان مفصلة لمن شاء أن يرجع إليها^(١) .
وقد كان الروح الشائع في قصيدته الأولى الهمزية روح المعاتب^(٢) ، كذلك كان موقفه مع زوج الزبرقان موقف النبيل ذى الأخلاق العالية إلى حد أنه رفض أن يرحل قبلها على الراحلة وقال لها مامعناه : بل أنت أولا ، كمادة الأوربيين إذ يقدمون المرأة على الرجل .
« Ladies first »^(٣) .

مع عمر بن الخطاب :

وقد حبسه عمر لما شكاه الزبرقان ، بسبب سينية الخطيئة المشهورة ، التي قال فيها هذا البيت :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد ، فإنك أنت الطاعم الكاسي
ولما أفرَّ حسان بمحبة هذا الهجاء ، حبسه عمر ، ولم يعرف عنه إلا حينما استعطفه بأبيانه العاطفية المؤثرة ، وشفع له عبد الرحمن بن عوف . فأخرجه الخليفة وقال له : إياك وهجاء الناس قال : إذا يموت عيالى ، هذا مكسبي ومنه معاشي .

وفي رواية أن عمر اشترى منه أعراض المسلمين جميعا بثلاثة آلاف درهم ، وأخذ عليه ألا يهجو أحداً بعدها^(٤) ، فوفى بعهده مدة حياة عمر ، ثم رجع إلى الهجاء بعد وفاته ، كما أورد أبو الفرج^(٥) .

ويقال إن الخطيئة لما قدِم المدينة أول خلافة عمر ، سأله الخليفة : كيف كنتم في حربكم ؟

قال : كنا ألف فارس حازم !

(١) انظر الصفحات من ٩٠ إلى ٩٧ وشرح القصيدة رقم ٣٤ (٩٨ — ١١٥) ، ص .

١٣٥ — ١٣٨ .

(٢) شرح القصيدة رقم ٣٤ (ص ٩٨ — ١١٥) .

(٣) الروائع عدد ٢٩ (المقدمة : ص)

(٤) غ ٥٧ / ٢ (٥) غ ٥٨ ، ٥٦

قال : وكيف يكون ذلك ؟

قال : كان قيس بن زهير فينا وكان حازما فكنا لانعصيه ، وكان فارسنا عنقزة ، فكنا نحمل إذا حمل ، ونهجم إذا أحجم ، وكان فينا الربيع بن زياد ، وكان ذا رأى فكنا نستشير به ولا نخالفه . وكان فينا عروة بن الورد فكنا نأتم بشعره ، فكنا كما وصفت لك .

فقال عمر : صدقت ^(١) !

ونظر الحطيئة إلى ابن عباس في مجلس عمر رضي الله عنه فقال : مَنْ هذا الذي نزل عن الناس في سنَّه ، وعلاهم في قولهم ^(٢) ؟ !

رحيله إلى خوران :

ولما رأى أبواب الرزق سُدَّت في وجهه ، قال لعمر : يا أمير المؤمنين : اكتب لي كتابا إلى علقمة بن علاثة في خوران - وكان قد اتصل به الحطيئة في الجاهلية - لأقصده به ، فقد منعتني التكسب بشعري ، فصادف علقمة قد مات ، والناس منصرفون عن قبره ، فوقف عليه ، وأنشد قصيدة لامية . فقال له ابنه : كم ظننت أن علقمة يعطيك ؟

قال : مائة ناقة !

قال : لك مائة ناقة ، يتبغها مائة من أولادها . وأعطاه إياها ^(٣) .

اتصاله بأبي موسى الأشعري ^(٤) :

وفي تلك الأثناء اتصل بأبي موسى الأشعري ، وسواء ثبتت له القصيدة التي يمدحها بها ^(٥) أو لم تثبت ^(٦) ، فإننا نعرف بالاستناد إلى الطبري والأغاني أن الحطيئة اتصل بأبي موسى

(١) هامش الخزائن ١ / ٤٧٣ .

(٢) الأمل ٢ / ١٥٧ غ ٢ / ١٩١ ، التنبيه ١١٣

(٣) غ ١٥ / ٥٨ (٤) الروائع للبستانى ٢٩ يب

(٥) الديوان ص ٢٢٥

(٦) راجع في أنها من صنع حماد ، والآراء في ذلك مقدمة القصيدة ٥٠ من هذه الطبعة ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،

شع ١٥ ، غ ٢ / ٥٠ — ١٧٣ / ٥١ ، ٢٩ / ١١

سنة ٢٣ هـ أى فى آخر خلافة عمر؁ ووصله قائلا :

« سدوت فـه بمالى أن يشتمنى ا »

مع الوليد بن عتبة :

وقد اشترك الخطيئة فى محنة الوليد بن عتبة — حينما شرب الخمر — وحده على بن أبى طالب فى خلافة عثمان . وذكرى للخطيئة أبيات تذكر الحادثة^(١) . ورويت روايتين : إحداهما تهكم بالوليد؁ والأخرى فى موقف المدافع عنه؁ على أنى أميل إلى الرواية الأولى لما فى طبع الخطيئة وميله إلى السخرية . وكذلك ذكرت له فى الديوان قصيدة لامية (رقم ٥٤ ص ٢٣٩) يمدحه فيها :

اتصاله بسعيد بن العاص :

وقد اتصل الخطيئة بسعيد بن العاص؁ وإلى المدينة فى خلافة معاوية . فمدحه بمدائح رائعة؁ ودار بين إياس بن الخطيئة وخالد بن سعيد بن العاص حديث بصدها^(٢) .

وصيته :

ولما أحس بالموت؁ وعرف أنه ذلك؁ طلبوا منه أن يوصى؁ فذكر الرواة له : « وصية غريبة ظريفة . . . نرى أن الرواة والأدباء بعدهم؁ تصرّفوا فيها كل على ذوقه؁ فوسّعوا بعض أقسامها؁ وزادوا فيها؁ لاسيما الاستشهادات الشعرية وحكم الخطيئة فى أصحابها؁ حتى غدت الوصية نوعا من الأحكام الأدبية؁ ممزوجة بشىء من المجون؁ دالاً على أطوار غريبة؁ وولع بالتهكم شديد؁ ونحن لاننكر أن فى أصلها شيئاً من ذلك^(٣) » .

موته :

حاول الأستاذ البستاني صاحب مجموعة الروائع تحقيق زمن ميلاده وزمن وفاته؁ فرجح

(١) الديوان : ٢٣٢ — ٢٣٦

(٢) غ ٣٩ / ١٦ وانظر الصفحات ٢٤٦؁ ٢٤٧؁ ٢٥٠؁ ٢٥١؁ ٢٥٣ من الديوان .

(٣) الروائع ٢٩ (زيد) وقد حرصت فى هذه الطبعة أن أذكر رواية المخطوطة (ع) وأتبعها فى الهامش بالروايات الأخرى ومن هذا يتبين لقارىء مقدار مازاده الرواة على وجه التقريب (انظر الوصية فى نهاية باب الهجاء ٣٥٥ — ٣٥٨) .

- ونحن نوافق على هذا الترجيح - ، أن يكون ميلاده في الربع الأخير من القرن السادس ، ووفاته سنة ٥٩ هـ ، وهى السنة الأخيرة من خلافة معاوية ، وقد رجّح بذلك رأى ابن حجر في الإصابة^(١) وابن قتيبة^(٢) وأبى الفرج^(٣) ، ولذلك يتفق مع ابن سلام في أنه « قد عُمرَ دهرًا في الجاهلية » ويتفق مع المؤرخين الذين يقولون إنه من المعمرين ، فهو على هذا التقدير لا تدركه الوفاة إلا ويكون قد ناهز المائة من عمره^(٤) .

صورته :

يرسم المؤرخون للخطيئة صورة بدنية قبيحة ، إذ كان قصيراً دميماً ، أفقماً - أبى بارز اللحي الأسفل^(٥) - سيئ الخلق ، لا تأخذه العين^(٦) ، قبيح المنظر ، رثّ الهيئة^(٧) ، يلبس خشن الثياب وخلقهها . ويقال إنه أطلع في رَكِيٍّ أَوْحَوْضَ ، فرأى وجهه فقال :
أرى لى وجهها شوّه الله خلقه فقبيح من وجه وقبيح حامله^(٨)
وأذكر بهذه المناسبة قول المازنى - رحمه الله - وكان يتمتع من صوته في المذياع ، ومن وجهه فى المرأة .

أنظر إلى وجهى هذا اللعين واحمد على وجهك ربّ الفنون

أخلاقه :

يرسم المؤرخون للخطيئة صورة شريرة . فيقول أبو الفرج : وكان ذا شرّ وسفّه^(٩) . وقال الأصمعي : كان الخطيئة جشعاً سئولاً ملحفاً . دنىء النفس . كثير الشرّ ، قليل الخير . بخيلاً ؛ مغموز النسب ، فاسد الدين^(١٠) .

وفى موضع آخر : وكان دنىء النفس . وماتشأ أن تطعن فى شعر شاعر إلا وجدت فيه مطعناً ، وما أقل ما تجدد ذلك فى شعره^(١١) ! وعدّد أبو عبيدة بخلاء العرب فقال :

(١) خزانة الأدب للبغدادى ١ / ٤٠٩ (٢) الشعر والشعراء ص ١٨٤

(٣) غ ١٦ / ٣٩ ، ٤٠ (٤) الروائع ٢٩ .

(٥) المصدر السابق (يا) . (٦) غ ١٨١ / ٢ (٧) غ ١٦٣ / ٢ .

(٨) الديوان ٢٨٢ (٩) غ ١٥٧ / ٢ (١٠) غ ١٦٣ / ٢ .

(١١) غ ١٦٥ / ٢

بخلاء العرب أربعة : الخطيئة ، وُحَيْد الأرقط ، وأبو الأسود الدؤلى ، وخالد بن صفوان^(١) .
وبلغ من قسوة النظرة التي رماء بها الناس أن ضربوه مثلاً للدناءة . فقل أبو الفرج عن القتال
الكلابى : « كان في دناءة نفسه يشبه الخطيئة ! »^(٢) .

وقد زاد على المؤرخين السابقين الأستاذ البستاني صاحب الروائع ، فنصب نفسه في التجامل
عليه ، ولم يحاول أن ينصف الخطيئة الإنسان ، برغم أنه أحسن من خلال شخصيته ذلك .
فرّ بتلك اللمحة سريعا قائلا : على أن هذا الرجل اللئيم الطباع ، الخبيث اللسان ، المنافق
في دينه كان رقيق القلب أحيانا ، شقيقا ، عطوفا على امرأته وإننا نحترم هذه
العاطفة في أى شخص كان^(٣) .

أقول : إن الخطيئة — رغم أقوال المؤرخين القدامى — لم يكن يخلو من صفات ، أقل
ما يقال فيها أنها لا تخرجه من إطار الإنسانية العام الذى كاد ينتزعه منه المؤرخون الأقدمون
انتزاعا . ومما لاشك فيه أن الخطيئة ، كمعظم ذوى الشخصيات التاريخية التي عاشت في عصر
ندر فيه التدوين أو انعدم . لم تصلنا أخباره تامة كاملة عن طريق أيد أمينة .

أقول : لم تصلنا جميع أخباره ، حتى نستطيع أن نحكم على الخطيئة هذا الحكم الجائر الذى
شاء هوئى معاصريه وخيالهم أن يصوره بمثل هذه الصورة التي أحس بأنها تبعد بعداً ما عن
الحقيقة . وقد بدأ المجتمع يعادى الخطيئة منذ ولده ، ولا أستبعد أن يكون قد سخر به منذ
صباه سخرية أحقته . ولا شك عندي في أن كل تصرف خاطيء مهما كان صغيرا ، كان
يبالغ فيه ، وهو حينذاك يقترب من الحديث الشريف الذى يقول : « إنما أهلك الذين من قبلكم
أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » ولا شك
أن هفوات الخطيئة وصغائره ، ككل إنسان ناقص له هفواته وصغائره ، كان يحاسب عليها حسابا
عسيرا ، وكان من الطبيعى أن يقابل الخطيئة هذا العداء الاجتماعى بمثلها أو بأشد منه . وهذا
هو ما أحاط به وبشخصيته . ولعل هذا التصوير العنيف الذى يحاط به هو امتداد لعداء

(١) غ ١٦٣ / ٢ (٢) غ ١٦٥ / ٢ (٣) الروائع (يو ، يز) .

الجميع له . ولعل الزبرقان وقيلته كان لهم فضل أى فضل فى تشويه شخصيته ، فقد رويت قصة فى أيام عمر بن الخطاب تدل على بخل الزبرقان ، إذ نزل بمائه عبد الله بن أبى ربيعة فحملاه عن الماء . فقال له عمر : أئمنع ماءك من ابن السبيل ؟ والذى نفسى بيده ، لئن بلغنى أنك منعت ماءك من أبناء السبيل لاسا كنتنى بنجد أبدا . وذكر بعض أبيات لبني أنف الفاقة يعير الزبرقان ما فعله^(١) . وإنى لأعجب من الرواة الذين لم يحاسبوا الزبرقان على بخله ، وعلى ردّه على عمر هذا الرد المنتطح قائلا : «يا أمير المؤمنين ، ألا أئمنع ماء حفر آبائى مجاريه ومستقره وحفرته أنا بيدي» ، لم يحاسب الرواة الزبرقان على ذلك ، ثم يحاسبون الخطيئة على هجائه البخلاء ، ومن بينهم الزبرقان .

فما يدل على بصيص ضئيل من حسن خلق كان يستكن فى قرارة نفسه : إنه أبى أن يتقدم امرأة الزبرقان ، وقال لها : بل تقدمى أنت ، فانت أحق بذلك ! « ففعلت ، وتناقلت عن ردّها إليه ، وتركته يومين أو ثلاثة ! »^(٢) . وكذلك نلاحظ بوضوح أنه قد أبى أن يهجو الزبرقان فى أول الأمر ، على رغم إلحاح بنى شماس القريعيين رهط بغيض ممدوحه قائلا : « لا ذنب للرجل عندي ، حتى أرسل الزبرقان إلى رجل من النمر بن قاسط ، فهجا بغيضا ، فحينئذ بدأ الخطيئة فى هجاء الزبرقان^(٣) ! » ومع ذلك فقد بدأ هجاءه بعتاب رقيق جمل عمر — لما سمعه من الزبرقان شاكيا — يقول : ما أسمع هجاء ولكنها معاتبه^(٤) ! وقد رفض أيضا هجاء أوس بن حارثة الطائي لما حاول قوم من أهله تحريضه على هجائه قائلين : اهجه ولك ثلاثمائة ناقة !

فقال الخطيئة : كيف أهجو رجلا لأرى فى بيتى أناثا ولا مالا إلا من عنده ! ثم قال : كيف الهجاء ، وما تنفك صالحة من آل لام بظهر الغيب تأتيني فقال لهم بشر بن أبى خازم : أنا أهجوهم لكم ، فأخذ الإبل وهجاء^(٥) ! وتروى نفس القصة مع زيد الخيل^(٦) .

(١) انظر القصة فى الديوان ٢٩٤ — ٢٩٥ .

(٢) غ ١٨٢ / ٢ (٣) غ ١٨٢ / ٢ (٤) غ ١٨٦ / ٢

(٥) خزائن الأدب للبغدادى ٢ / ٢٦٣ (٦) غ ١٦ / ٥٥

ولو كان الحطيئة بشعا إلى هذا الحد ، لما كان لديه هذه الغيرة على بناته ، بل كنت أوافق على وصفه بشدة البخل الذي يمكن أنه كان يدفعه إلى أن يرضى لنفسه بأن يكون ديوثا ، ولا مانع لديه من الاستفادة من وراء بناته — بأية طريقة من الطرق — ولكنه بعكس ذلك ، خشي على بناته حينما نزل ببنى مقلد بن ربوع . فقالوا له : « ... فرنا بما تحب أن فعله ، وبما تحب أن تنتهي عنه ، فقال : « لا تكثروا زيارتي فتملوني ، ولا تقطعوها فتوحشوني ، ولا تجمعوا فناء بيتي مجلسا لكم ، ولا تسمعوا بناتي غناء شبانكم ، فإن الغناء رقية الزنا ^(١) » !

ولما التقى ابن عباس في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يعرفه في أول الأمر حتى عرفه عبد الرحمن بن سنيحان المخاربي حليف قريش ، فأجله وأعظمه وأطف في مسأله وقال : قرب الله دارك يا أبا مليكة . (وبذلك خاطبه بكنيته احتراماً له) . فقال ابن عباس : أجرؤل ؟

قال : جرول ! فإذا هو الحطيئة .

فقال ابن عباس : « الله أنت ! أي مردى قذاف ، وذائد عن عشيرة ، ومثنى بعارفة تؤناها أنت يا أبا مليكة ! والله لو كنت عركت بجانبك بعض ما كرهت من أمر الزبرقان كان خيرا لك ، ولقد ظلمت من قومه من لم يظلمك ، وشتمت من لم يشتمك » .

قال : إني والله بهم يا أبا العباس لعالم !

ثم أنشد أبياتا ثلاثة أثنى فيها على آل شماس ثم هجا الزبرقان . فقال ابن عباس : أقسمت عليك ألا تقول إلا خيرا .

قال : أفعل .

ففي هذا النص يعترف ابن عباس بما للحطيئة من فضل على عشيرته ، وأنه يثنى على من يحسن إليه ، ويعترف بالفضل ، ولا ينكره ، ويعترف بما ارتكبه آل الزبرقان في حقه بقوله : « بعض ما كرهت من أمر الزبرقان » ولتكمّل النص : « وسأله ابن عباس عن أشعر

الشعراء ، فذكر له الخطيئة إعجابه بزهير لقوله : ومن يجعل المعروف ... وبالنافعة لقوله :
ولست بمستبق أخا ... ثم يستطرد في التعليق فيقول :

ولكنّ الضراعة أفسدته كما أفسدت جرّولاً — يعنى نفسه — والله يا ابن عم رسول الله
لولا الطمع والجشعُ لسكنت أشعر الماضين ! ففي هذا اعتراف صريح منه بأن الأخلاق العالية
خير للفتى أن يتحلّى بها ، وأن المال لا يمكن أن يرفع الشخص بل يخفضه ، ويؤيد ذلك ما قاله
من أبيات ^(١).

وما بخل الخطيئة إلا نتيجة لحياته القاسية التي عاشها ، ولفقدان حقه في الميراث ، بل حقه
في أن يعرف مَنْ أبوه لكي يتمكن من أن يرفع رأسه عالياً بين إخوته وقومه وعشيرته ، فإن
العقدة النفسية التي تأصلت في عقله الباطن وسيطرت عليه ، قد علمته أن المال هو كل شيء
في الحياة ، ولذلك بدا في كثير من الأحيان طماعاً جشعاً ، على حد تعبير الأقدمين .

واعتقد أن مما جعل الناس يكرهون الخطيئة ، كونه مجهول الأب ، فقد صرّح ابن الكلبي
بقوله عنه : وكان من أولاد الزنا الذين شرفوا ^(٢).

إننا نعرف أن الاقريط أو ابن الزنا يعيش طول حياته محتمراً في نظر الناس ، حتى إذا
ارتفع أو أظهر نبوغاً ، كره ذلك منه الناس ، وعدّوا ذلك شيئاً غير لائق بمثله أن يصل إليه ،
وبذلك يكون ذلك من الأسباب والعوامل التي تزيد من اضطهاد الناس له وملاحقتهم إياه
بكرههم وإبذائهم ، ومحاولتهم الخط منه لهدمه ، بل وإفنائته من سجل الوجود . وإذا عرفنا
المزاج العربي الحاد سريع الحساسية من جهة ، وأنفة العربي واعتزازه بآبائه وأجداده ^(٣) ، من جهة
أخرى أدركنا إلى أي حد يحتقر هذا المزاج من ينبذه المجتمع لجريرة ارتكابها أب مجهول ، ثم ترك
ثمرة جرمه تسعى وتدب بين الناس . لو تأملنا موقف العربي من الأعاجم ، وتعصبه ضدهم
تعصباً مقيتاً لا يسمح للأعجمي بالزواج من العربية حتى إذا حدث ذلك ، أرغم الأعجمي

(١) ص ٢٩٢ من هذه الطبعة .

(٢) غ ١٥٨ / ٢ .

(٣) انظر مثلاً ذلك الفرزدق وتيه بآبائه وأجداده في فخره العنيف بذلك .

(أوالعلاج) على تطبيقها^(١) ، إذا عرفنا مايفعله العربي إزاء الأعجمي ، فما به يفعل إزاء ابن الزنا ؟

إن الخطيئة كان يشعر بتلك العقدة - عقد الشعور بالنقص إلى حد أنه صرح قائلا : « إنما أنا حَسَبُ موضوع^(٢) » وإذا حاولنا أن نحس إحساساته ، وفهمنا ذلك الجانب الخطير من نفسيته أستطعنا أن نفسّر بسهولة تجرّؤه على هجاء من هجا من أقرب المقر بين إليه : إخوته أمه . زوجه أولاده ، وأخيرا . . . نفسه ! الظن أنه كان كثيرا ما تنتابه حالات القلق النفسى والضيق فيثور ثورة الذى يريد أن يحطم كل شىء أمامه .

وبعد ، فستطيع أن نشعر بذلك تمام الشعور إذا قرأنا سيرة شخصيتين إحداها جاهلية وهى شخصية عنزة والأخرى جاهلية إسلامية وهى شخصية زياد بن أبيه ، وعرفنا إلى أى حد نكّرهما الناس ، وإلى أى حد أشعروهما بالمهانة والاحتقار . وما زاد فى التأثير فى شخصية الخطيئة أنه عاش إبان ظهور الإسلام ، فى الوقت الذى كانت فيه نفوس المؤمنين تترعرع بنفحات الدين الجديد وتمتلئ نفوسهم امتلاءً بعقائده ، ولذلك كلما وجدوا خروجاً بسيطاً عليه ، أو هفوة صغيرة من جانب أحد المسلمين ، فإنهم يشمّزون كل الاشمّزاز منه من جهة ولا يكادون يرحمون مرتكبها من جهة أخرى ، ونستطيع أن نضرب مثلاً بسيطاً لذلك هو ضرب على بن أبى طالب للوليد بن عقبة بن معيط بعد أن كاد يترأخى ولى الأمر - كايرون - عن تنفيذ العقاب ومحاولة الوليد ثنى على عن التنفيذ بقوله : إنه من قريش ! فبالك بحرمة حدث فعلا وهى جريمة الزنا التى لا يستطيع تحوّلها لأنها قد حدثت وأثمرت تلك الثمرة : وهى الخطيئة^(٣) تلك الثمرة التى يشاء القدر الساخر أن يطلق عليها اسما هو أقرب الأسماء إلى « الخطيئة » .

وكم من مرة حاول أحد الاسمين أن يراحم الآخر فى ذهن كل من يلتقى بالخطيئة ، فلا يملك — على ما تخيله وأعتقد — إلا أن يبتسم ابتسامة السخرية ، ولو فى ضميره ، وفى أعماق نفسه .

ولهذا الأصل الذى نشأ فى لهيبه ، ولهذا القذارة التى لحقت من جهة ولادته ونشأته ،

(٣) غ ٢ / ١٧١

(٢) غ ٢ / ١٧١ .

(١) انظر العقد القرئيه ٢ / .

ولهذا الحرمان الذى مُنِيَ به وهو الحرمان من عطف أبيه وإضافته عليه أسباب الاحترام والرضا عن نفسه ، والحرمان الذى مُنِيَ به من إخوته حينما أبوا أن يعترفوا به أخا لهم من جهة وأن يعترفوا بحقه فى أن يرث كما ورثوا من جهة أخرى ، هذا الحرمان طبعه بطابع الحرص على تعويض ما ينقصه ، والمبالغة فى هذا الحرص ، وإعمال شخصيته المفككة فى هذه المبالغة ، فكان نتاج ذلك كله طمعا وإحافا فى السؤال وجشعا ومن ثمَّ بخل ، وهذه صفات طبيعية لا تجعلنا نشور على صاحبها ثورة عارمة ونمقته مقتا عنيفا قبل أن نفوس فى أعماق نفسه ونعرف أسباب هذه الصفات السابجة على المظهر الخارجى لنفسه : إنه بخل وجشع نتجا عن حياته كلها بما فيها من تلك العيوب التى ذكرت والتى صورت آفنا ! ولهذا كله ، بل ولأكثر من هذا ، لا عجب إذا روى لنا أبو الفرج قصتين تدلّان على بخله وعدم إكرامه الضيفان (١) بل وهجاء الأضياف : وهذا إن دلّ على شئ ، فإنما يدل على انتقام من الناس بهذا الفعل أكثر مما هو طبع أصيل فيه ! فإن شعوره بالنقص كان يجعله يُهين نفسه فى سبيل اكتساب المال الذى يراه مادة الحياة ووُضلة كل إنسان إلى السعادة والرفعة ، ولذلك حرص على اقتنائه فمن هذا كان حريصا وبخيلا بما كدّ وتعب فى جمعه وبما عز عليه أن يناله هينا لينا من إخوته ميراثا .

وأخيرا أستطيع أن أقول لمن ينظرون تلك النظرة المخطئة للحطية من غير ماتعمق فى شخصيته ، أقول لهم : لو عاش الحطية فى الدولة الأموية أو العباسية لتغيرت - كما اعتد - نظرة الناس إليه .

خفة روحه :

وكان الحطية فكها ، مثله فى ذلك مثل من هم على شاكلته ، وأكثرهم ممن مُنوا من الحياة بدشويه فى الشكل أو الخلق أو النفس ، فأصيبوا بعقدة تجعلهم يتصرفون بعض التصرفات التى تدل على محاولة الناس أن يضحكوا منهم ، وأن يحاولوا هم الضحك من الناس ، وأشباه ذلك كثير من الساخرين كالشيخ عبد العزيز البشرى ، وإمام العبد ، والجاحظ وبراناردشو

وغيرهم كثير ، ولا نجد في كتب الأدب إلا القليل في هذا الصدد ، فيحكى أبو الفرج تلك القصة :

مرّ ابن الحمامة بالحطيثة — وهو جالس بفناء بيته — فقال : السلام عليكم .

فقال : قلتَ مالا يُنكر !

قال : إني خرجت من عند أهلى بغير زاد !

فقال : ماضِمتُ لأهلكِ قِراكِ !

قال : أفتأذن لى أن آتىَ ظل بيتك فأتفياً به ؟

قال : دونك الجبلَ بىء عليك !

قال : أنا ابن الحمامة !

قال : انصرف وكن ابن أى طائر شئت (١) !

وروى أبو الفرج هذه القصة أيضاً :

أتى رجل الحطيثة وهو فى غم له ، فقال له : يا صاحب الغم !

فرفع الحطيثة العصا ، وقال : إنها تجرّاه من سَلَم !

فقال الرجل : إنى ضيف !

فقال : للضيفان أعددتها !

فانصرف عنه (٢) .

وإذا أضفنا إلى ذلك ما جاء فى وصيته المشهورة اللطيفة (٣) ، وما يذكّر عنه فى كتب

النوادر (٤) ، عرفنا أن الحطيثة كان يتمتع بخفة الروح ، تظهر فى كثير من شعره ، وفى بيتيه اللذين هجا بهما رجلا من أضيافه (٥) .

• • •

(١) غ ١٧١ / ٢ وتشبه هذه القصة فى ردودها القصيرة تلك الأسطورة التى تروى على لسان الأرنب والضب حينما التقطت الأرنب ثمرة فاخترلسها الثعلب ، فانطلقا إلى الضب . . . الخ .

(٢) غ ١٧١ / ٢ (٣) انظر الديوان ص ٣٥٥ .

(٤) كتاب [جمع الجواهر فى الملح والنوادر] للشمس طبعة التجارية سنة ١٩٣٢ ص ٢٢٧ .

(٥) الديوان ص ٣٥٣ وانظر القصة التالية .

خوف الناس والقبائل منه :

ولشدة وقع هجائه ، كان يخشاه الناس ، فما يدل على ذلك أنه : « لما نزل بالمدينة في سنة مجدية ، مشى أشراف أهل المدينة بعضهم إلى بعض ، فقالوا : قد قَدِمَ علينا هذا الرجل وهو شاعر ، والشاعر يظن فيحقق ، وهو يأتي الرجل من أشرافكم يسأله ، فإن أعطاه جهد نفسه بهرها ، وإن حرمه هجاء ، فأجمع رأيهم على أن يجعلوا له شيئاً معداً يجمعونه بينهم له ، فكان أهل البيت من قريش والأنصار يجمعون له العشرة والعشرين والثلاثين ديناراً ، حتى جمعوا أربعائة دينار ، وظنوا أنهم قد أغنَوْه ، فإذا هو يوم الجمعة قد استقبل الإمام ماثلاً ينادى : من يحملني على بغلين وقاه الله كربة جهنم ^(١) !

وكذلك سبقت قصة تشبه السابقة في خوف بني مُقلَّد بن يربوع منه ، وإكرامهم إياه حتى لا يتناولهم في شعره ^(٢) . وقد خاف منه حسان أيضاً ، فيروى أبو الفرج هذه القصة :
وقف أعرابي على حسان بن ثابت وهو يُنشد ، فقال له حسان : كيف تسمع يا أعرابي ؟

قال : ما أسمع بأساً !

قال حسان : أما تسمعون إلى الأعرابي ؟ ما كنتك أيها الرجل ؟

قال : أبو مليكة .

قال : ما كنت قطُّ أهونَ عليَّ منك حين ا كنتيت بامرأة . فما اسمك ؟

قال : الخطيئة .

فأطرق حسان ؛ ثم قال له : امضِ بسلام ^(٣) .

قن الخطيئة :

كان الخطيئة راوية لزهير وابنه ، وكان هذبة بن خشرم راوية للخطيئة ^(٤) .

(٢) غ ١٧٨ / ٢ .

(١) غ ١٦٤ / ٢

(٣) غ ١٧٠ / ٢ .

(٤) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٢٣ ، غ ١٦٥ / ٢ ، ٧٣ / ٧ ، خزائن الأدب البيهقي ١ / ٤٠٩

وقد سأل كعب بن زهير أن يذكره في شعره قائلا : قد علمت روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم ، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك ، وتضعني موضعا بعدك ، فقال كعب :

فَنَ لِقَوَائِي شَانَهَا مِنْ يَحْكُوهَا إِذَا مَا تَوَى كَعْبٌ وَفَوْزَ جَرَّوُلُ
كَفَيْتِكَ لَا تَلْقَى مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا تَنْخَلُ مِنْهَا مِثْلَ مَا تَنْخَلُ^(١)

ومن الغريب أن القدماء اعتبروا ذلك الطلب الذي طلبه الخطيئة من كعب دناءة ، فقال أبو الفرج : « فبلغ من دناءة نفسه أنه أتى كعب بن زهير . . . قائلا له فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك وتضعني موضعا بعدك »^(٢) .

ويمكن أن نعتبر الخطيئة من مدرسة زهير وأوس بن حَجَر التي تُعَسِّى بتهديب الشعر وتنقيحه والتعميل فيه زمنا حتى يخرج منقعا ، أو كما قيل : « الحَوْلَى المحْكَك » ولقطة مابشره من أخطاء قيل عنه : وماتشاء أن تطعن في شعر شاعر إلا وجدت فيه مطعنا ، وما أقل ما تجد ذلك في شعره^(٣) .

وقد ذكر أحد النقاد أبياتا قافية للخطيئة ينتهي بعدها مُنشدُها بأنه ليس بعد زهير إلا الخطيئة^(٤) ، وقد يكون الخطيئة قد تأثر بزهير ، ولكن هذا التأثير لا يمكن أن يصور بأنهما مشتركان في إيراد الصور الحسية المادية فحسب ، كما قال الدكتور طه حسين ، فليس إيراد الشاعر للصور المادية الحسية تعبيرا عن ذات نفسه يعتبر مذهباً خاصاً به منسوبا إليه ، بل إنه شيء شائع عند أغلب الشعراء .

ومهما يكن من أمر ، فليس هذا موضع مناقشة الدكتور طه حسين أو الدكتور شوقي ضيف في دراسة الشعر العربي على أساس أن به مذاهب الصنعة والتصنع والتصنيع ، فذلك شيء يجافي روح الشعر كل المجافاة .

وقد صدق فيكتور هيجو والشاعر الإنجليزي كينس في نظرتهم إلى الشعر أنه فيض

(١) غ ٢ / ١٦٥ (٢) غ ٢ / ١٦٥ .

(٣) الديوان ص ٢٩٤ ، غ ٢ / ١٦٥ .

لاصناعة^(١) . ولذلك لاجابة بنا إلى مناقشة من حاولوا دراسة فن الخطيئة على هذا الأساس ، كما فعل البستاني صاحب الروائع حين كلامه على الخطيئة هذا الكلام السطحي الذي لاغناء فيه قائلاً : أما تأثير زهير فيه فواضح ، خصوصاً في القصائد المدحية ومقاطع الوصف ، وهو يتجلى بمظهرين : الأول من حيث الصناعة الشعرية وما إليها من السبك والتنسيق . والثاني من حيث التعابير والأوصاف ، واستغلالها على طريقة خاصة ورثها زهير عن أوس ، وأورثها ابنه كعباً ، وتلميذه الخطيئة^(٢) ، وما هذه الطريقة الخاصة التي أورثها زهير تلاميذه ؟ إنه لا يشرحها إلا بعبارات مبهمة لا طائل وراءها . ومهما يكن من أمر ، فندرج أن تتاح لنا الفرصة فنوفق إلى دراسة رأي الدكتور طه حسين ومن أتى بعده ، لكي نبين ونثبت أن تقسيم الشعر العربي إلى مدارس تقليدا للشعر الغربي ، ومحاولة النظر إليه على أنه صناعة شيء بعيد عن روح الفن ولا طائل وراءه .

مكاته ورأى الأقدمين فيه :

قال أبو الفرج : « وهو من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم ، متصرف في جميع فنون الشعر من اللديح والهجاء والفخر والنسيب ، مجيد في ذلك أجمع »^(٣) .

وقال أبو عبيدة — فيما يختص بالأسلوب — كان الخطيئة متين الشعر ، شروء القافية^(٤) وقال أحد النقاد : « مامن أحد إلا لو شاء أن أجد في شعره مطعنا لوجدته . إلا الخطيئة^(٥) » وعده ابن سلام في الطبقة الثانية من الجاهليين .

وقيل للخطيئة : ما بال قصارك أكثر من طولك ؟

قال : لأنها في الآذان أولج ، وفي أفواه الناس أعلق^(٦) .

وقد عبر ابن عباس عن شعره الهجائي ، وقوة أسلوبه أقوى تعبير بقوله له : أيُّ مِرْدَى قذائب ، وذائد عن عشيرة ، ومُثْنٍ بعارفةٍ توثأها أنت يا أبا مليكة^(٧) ؟ وأعجب به

(١) قصة الأدب في العالم : جمع وتمريب أحمد أمين وزكي نجيب محمود ٢ / ٨٧ .

(٢) الروائع ٢٩ (كا) (٣) غ ١٥٧ / ٢ (٤) غ ١٦٥ / ٢

(٥) غ ١٦٩ / ٢ (٦) غ ٣٣ / ١٩ (٧) غ ١٩٢ / ٢

كثير عزّة ، إذ جاءه رجل فسأله : أبا صخر، مَنْ أشعر الناس ؟ قال : الذى يقول :

وَأَثَرْتُ إِدْلَاجِي عَلَى لَيْلِ حُرَّةٍ هَضِيمِ الْحِشَا حُسَانَةَ الْمُتَجَرَّدِ

تَفَرَّقَ بِالْمِذْرَى أَيْبَانَا نَبَاتُهُ عَلَى وَاضِحِ الذَّفْرِى أَسْلَى الْمَقْلَدِ

قال : قلت هذا الخطيئة . قال : هو ذاك (١) .

وقد كانت أبياته الرائية القوية التى استرحم بها عمر سببا فى العفو عنه لشدة تأثيرها ووقعها على النفس .

وقد نقده المرزبانى فى بعض أبيات قالها (٢) :

الخطيئة والشعراء :

أبدى الخطيئة رأيه فى بعض الشعراء ، فحينما وقف على حسان وهو ينشد ، سأله رأيه فى شعره قائلا : كيف تسمع يا أعرابى ؟ قال : ما أسمع بأسا (٣) .

وهذا إن دلَّ على شئ فهو يدل على أنه لم يعجب به كل الإعجاب ، ولكنه فى وصيته التى رويت عنه يقول لأهله : أبلغوا الأنصار أن صاحبهم أشعر العرب حيث يقول :

يُغَشُونَ حَتَّى مَاتَهُمْ كَلَابِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

وأعجب ببعض الشعراء لأبيات قالوها كالشماخ ، وضابى ، وامرىء القيس ، وزهير ، والنابعة وأبى دؤاد الإيادى وعبيد بن الأبرص (٤) ، وهذه الأحكام النقدية أحكام جزئية لاتدل على قيمة أدبية أو ذوق الشاعر فى اختياره أو تميله إلى أسلوب خاص من الأساليب . وكان فى كل مرة يفضل عدة شعراء ، ينتهى بالكلام على نفسه كما حدث حينما التقى بسعيد بن العاص ، وعدَّله بعض الشعراء الذين يعتبر كل واحد منهم أشعر الشعراء ، ثم سئل ، ثم من ؟ قال : والله لَحَسْبُكَ بى عند رغبة أو رهبة إذا رفعت إحدى رجلى على الأخرى ، ثم عويت فى إثر القوافى عواء الفصيل الصادى (٥) .

(١) غ ٢ / ٢٠٠

(٢) أنظر الموشح للمرزبانى ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ وأنظر الديوان :

(٣) غ ٢ / ١٧٠ (٤) أنظر وصيته ص ٣٥٥ - ٣٥٨ والتقاء سعيد بن العاص من الديوان .

(٥) غ ٢ / ١٦٧

وقد أعجب بالفرزدق في مجلس سعيد بن العاص ، فقال له : قل ما شئت فقد أدركت من مضى ، ولا يدركك من بقى ، ثم قال لسعيد : هذا والله الشعر ، لا ما كنا نعمل به أنفسنا منذ اليوم .

وزاد على ذلك ابن سلام : أنه لما قال هذا الكلام ، قال له كعب بن جعيل — وكان حاضرا — فضله على نفسك ولا تفضله على غيرك .

فقال الخطيئة : والله أفضله على نفسى وغيرى ، ثم قال له : يا غلام ، أنجذت أمك ؟ قال : بل أنجد أبى !

وبهذا استطاع الفرزدق أن يغلب الخطيئة في الجواب ، ومع هذا فقد ادعى جرير أن كلمة الخطيئة الأخيرة تمد إهانة للفرزدق ، فقال :

سأذكر ما قال الخطيئة جاركم وأخبرتُ سماء فوق وسم الحبل (١)

وقال الفرزدق في إحدى قصائده التي يفخر به :

وهب القصائد لى النوابع إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجروول (٢)

فهجاه الطرماع بسبب هذا البيت قائلا :

فاسأل قفيرة بالمرآت هل شهدت عُسب الخطيئة بين الكسر والنصد (٣)

ولما هجا النجاشي بنى العجلان ، أرسل عمر إلى الخطيئة وحسان لتحكيمهما ، وأخذ رأيهما في هذا الهجاء (٤) .

(١) النقائض بين جرير والفرزدق ٧٧٠

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٦٨

(٣) المرجع السابق ص ٥٦٩ (٤) المرجع السابق ٢٩٠ — ٢٩١ .

مراجع لدراسة فن الخطيئة

وممن درس الخطيئة :

- ١ - جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية .
- ٢ - محمد حسن فائل المرصني : « من دراسة الشعراء » الذى أكله إبراهيم الإياري ،
وعبد الحفيظ شلبي (طبعة مصطفى محمد سنة ١٩٤٤) ص ٢٥١ - ٢٨٥ .
- ٣ ، ٤ - طه حسين : فى الأدب الجاهلى (طبعة القاهرة سنة ١٩٣٣) ص ٣١٠ - ٣١٦
حديث الأربعاء (طبعة مصطفى البابى الحلبي سنة ١٩٣٧) ١ / ١٥٣ - ١٧٠ .
- ٥ - إفرام البستاني : مجموعة الروائع : العدد الخاص بالخطيئة (طبعة بيروت سنة ١٩٣١ ،
١٩٤٢)
- ٦ - م . محمد حسين : الهجاء والهجاؤون (مكتبة الآداب ١٩٤٧) ١ / ١٠٢ - ١١٣ .
- ٧ - السباعى السباعى ييوى : من تاريخ الأدب العربى (مكتبة الانجلو ١٩٥٢)
٢ / ٣٣٦ ، ٣٨٠ .